نجيب محفوظ

عجائب الأقدار

«مُيَسَّرة»

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للأطفال،
ليقرءوها بفهم تام، واستمتاع بأحداثها كاملة،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية.

محمد المعلم

دار الشروق

صفحة فارغة

عجائب الأقدار

عجائب الأقدار

ميسرة

طبع لأولى مرة : ١٩٨٩م

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٣٤١٧

الترقيم الدولى: ISBN 977 - 09 - 0804 - 5

© دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى

ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر

ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الالكترونى : dar@shorouk.com

١

جلس صاحب العظمة الإلهية فرَعْون مصر، الملك خوفو بين أبنائه ورجاله المقرّبين. وكان يحب هذه الجلسات العائلية، التى تعفيه من الرسميات والتقاليد، ويكون فيها أبا رقيقا وصديقا ودودًا.

وبدأت الجلسة بالحديث عن الهرم، الذى أراد خوفو أن يبنيه، ليكون مقراً خالدا لجثمانه بعد مماته. فأخذ المعمارى المصرى النابغة مرئيبْ، يشرح عمله المجيد ويبيّن عظمته. . وكان الملك يستمع إلَى صديقه الفنان. غير أنه تذكّر السنوات العشر التى مضت على بداية العمل، فتململ، وقال:

ـ مرئيبْ العزيز. . أنا مؤمن بنبوغك. . ولكن إلى متى التأخير؟ مضتَ عَلى بداية العمل عشرة أعوام، حشدْت لك فيها الملايين من الرجال الأشداء، وعبّأت لك خير الفنييّن من شعبى العظيم. ولم يظهر الهرم فوق الأرض للآن.

بدا الارتباك على مرئيبْ، وقال بصوته الرفيع:

ـ مولاى! حاش أن أضيّع الوقت أو الجهد. نحن صنعنا فى الأعوام العشرة معجزات، تعجز عن صنعها الجبابرة والشياطين. فقطعْنا من الجبل صخورا شاهقة، وسوّيناها، ونقلناها على السفن تشقّ النيل من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال. وشققنا فى الصخر مجرى للماء يصل بين النيل وهضبة الأهرام.

فابتسم الملك وقاطعه مازحا:

ـ عجبا.. أمرناك أن تشيّد لنا هرما فشقَقْت نهرا. هل تظن مولاك ملكا على الأسماك؟

وضحك الملك، وضحك الحاضرون إلاّ الأمير خَعُوفْ وليّ العهد. وكان شديدا فى كلامه مع مِرْئيبْ عن التأخير فى سير البناء.

وساد الصمت لحظة، إلى أن شاع فى الجو نغم موسيقى الحرس الفرَعْونى. فلما خفتت أصوات الموسيقى، نظر فرَعْون إلى وزيره خَعْمينْ، وسأله، والابتسامة على شفتيه:

ـ هل الصبر من طبائع الملوك؟

فرد الرجل بصوته الهادئ:

ـ مولاى، يقول فيلسوفنا الخالد، وزير الملك حُونِى: الصبر ملجأ الإنسان من اليأس، ودرَعْه ضدّ الشدائد.

ـ هذا ما يقوله وزير الملك حونى.. فماذا يقول وزير الملك خوفو؟

تأهب الوزير للكلام. ولكن الأمير خَعُوفْ سبقه، وبحماس أمير فى العشرين من عمره قال:

- صحيح، الصبر فضيلة. ولكنها لا تليق بالملوك. ففضيلة الملوك هى القوة. القوة التى عوّضتهم بها الآلهة عن الصبر.

ودار الحديث عن الصبر والقوة والرحمة والمحبة، ثم عاد ثانية إلى الهرم، وجيوش العمال الذين يعملون فيه. وقال مرْئِيبْ:

- العمال يا مولاى طائفتان:

طائفة الأسرى والأغراب، وهؤلاء لا يدرون ماذا يفعلون، تحرّكهم العصا، ويسوقهم الجنود. وطائفة المصريين. وأغلبيّتهم من مصر العليا. وهم أناس قوة تحمّلهم شديدة، وصبرهم على الشدائد عظيم، وهم يعلمون ماذا يفعلون. تؤمن قلوبهم بالعمل الذى يهبونه حياتهم راضين. فهو عندهم واجب دينى للرب، وطاعة للجالس على العرش فرَعْون. تراهم يامولاى فى وهج الظهيرة وتحت نيران الشمس، يضربون الصخر بسواعد قوية وعزائم فتية، وهم ينشدون الأغانى والأناشيد.

فانبسطت أسارير السامعين، وسرت فيهم نشوة الفرح والفخار، وظهر الرضا على وجه فرَعْون. وقام عن أريكته وقام معه الجالسون، وسار فى الشرفة الواسعة، وألقى النظر بعيدا إلى الهضبة الخالدة، يرقد على طرفها أبو الهول العظيم.

وتأمّل منظر العمال، وصفوفهم الطويلة، ومشهدهم الرائع. أى مجد وجلال!

وانتهت الجلسة بمفاجأة عرضها الأمير هُورْدادِيفْ على والده:

- أبى الملك. أستطيع أن أقدّم بين يديك - لو تشاء - ساحراً عجيبا، يعلم الغيب، ويأتى بالمعجزات.

نظر فرَعْون إلى ابنه باهتمام. وكان يسمع كثيرا عن السحرة ومعجزاتهم، وسأله:

- ومن هو هذا الساحر؟

فقال الأمير:

- هو الساحر ديدى يا مولاى. يبلغ من العمر مائة عام وعشرة، ولا يزال محتفظا بقوّة الشباب وفتوّة الصبا. وله قدرة عجيبة يتحكم بها فى الإنسان والحيوان، ويخترق بها أستار الغيب، ويعرف أسرار المستقبل.

ازداد اهتمام الملك، وقال:

- هل تستطيع أن تأتى به الآن؟

فقال الأمير بفرح:

- سريعا يا مولاى.

ثم وقف وحيّا والده بانحناءة طويلة. وذهب ليحضر الساحر العجيب.

صفحة فارغة

٢

سريعا، رجع هُورْداديفْ، ومعه رجل طويل القامة عريض المنكبين، حادّ البصر نافذَ النظرات، شعر رأسه أبيض، ولحيته كثّة طويلة، ويتوكّأ على عصا غليظة. انحنى الأمير وقال:

- مولاى، عبدك المطيع الساحر ديدى.

فسجد الساحر أمام الملك، وقبّل الأرض بين قدميه، ثم قال:

- مولاى، نور الشمس المشرقة ورب العالمين، دام له المجد وحلّت به السعادة.

فأبدى له الملك عطفه، وأجلسه على كرسى قريب منه، وقال:

- كيف لم أرك من قبل، وأنت سبقْتنى إلى هذه الدنيا بسبعين عاما كاملة؟

فأجابه الساحر المعمّر:

- وهبك الرب الحياة والصحة والقوة، إن رجلا مثلى لا يحظى بالمثول بين يديك إلاّ إذا دعوته.

فابتسم الملك، ثم نظر إليه باهتمام، وسأله:

ـ أحقا لك معجزات يا ديدى؟ تخضع الإنسان والحيوان لإرادتك، وتكشف الغيب، وتعرف المستقبل؟

فأحنى الرجل رأسه، وأجاب:

ـ هذا حق وصدق يا مولاى.

فقال الملك:

ـ أريد أن أشهد بعض هذه المعجزات يا ديدى.

سادت الرهبة واتسعت العيون وبدا الاهتمام على الوجوه. ولكن ديدى لم يبادر إلى عمله. بل وقف جامدا كأنما تحوّل إلى تمثال. ثم ابتسم عن أنياب حادة، وألقى نظرة على وجوه الحاضرين، وقال للملك:

ـ عن يمينى من لا يؤمن بى.

دهش الحاضرون، وسأل الملك:

ـ هل بينكم من لا يؤمن بمعجزات ديدى؟

هز القائد أُرْبوُ رأسه وتقدم، وقال: مولاى.

ـ مولاى، أنا لا أؤمن بألاعيب السحر. وأرى أنها نوع من المهارة يجيدها المتفرغون لها.

فقال الملك:

ـ ما جدوى الكلام والرجل أمامنا؟ هاتوا أسدا مفترسا نطلقه عليه، ونرى كيف يروّضه بسحره ويخضعه لإرادته.

ـ عفوا مولاى. لماذا الأسد؟ هأنذا واقف بين يديه.. فليجرّب فىّ سحره!

وساد صمت ثقيل، ونظر الجميع إلى الساحر بعد هذا التحدى، فوجدوه هادئا ساكنا، وابتسامة الثقة لا تفارق شفتيه، وضحك الملك ضحكة عالية، وقال لأُرْبوُ فى لهجة لا تخلو من السخرية:

ـ أهانت عليك نفسك يا أُرْبوُ؟

فقال القائد بثبات:

ـ إن نفسى يا مولاى عزيزة علىّ. ولكن عقلى عزيز علىّ أيضا، وهو يهزأ بألاعيب السحر.

غضب الأمير هُورْدادِيفْ وقال للقائد:

ـ فليكن ما تريد. وليتفضل مولاى الملك ويأذن لديدى بالرد على هذا التحدى.

فنظر الملك إلى الساحر وقال:

ـ هيا أرنا سحرك فى صديقنا أُرْبوُ.

نظر القائد إلى الساحر نظرة متعالية. وأراد أن يبعد وجهه عنه باحتقار. ولكنه أحسّ بقوة تجذبه من عينيه إلى الساحر. حاول أن

ينتزع عينيه من هذه القوة، ولكنه عجز وفشل. وثبتت عيناه على عيني ديدى. وكانت عينا ديدى تلتمعان وتبرقان، وغطى نورهما عيني أُرْبوُحتى أظلمتا وغاب عنهما نور الدنيا. وخارت قوى القائد الجبار فسلّم واستسلم.

ولما اطمأن ديدى إلى فعل قوته الخارقة، وقف وأشار إلى مقعده، وصاح بالقائد يأمره: «اجلس». وصدع القائد بالأمر، وسار يترنّح، وارتمى على الكرسى فى استسلام.

صدرت من أفواه الحاضرين آهات الدهشة. ونظر ديدى إلى فرَعْون وقال بأدب جم:

ـ مولاى، أستطيع أن آمره بما أشاء، ولن يخالف لى أمرا. ولكنى أشفق عليه، فهل تقنعون بما رأيتم؟

هزّ فرَعْون رأسه بالموافقة. فبادر الساحر إلى القائد المذهول، وجرى بأصابعه على جبهته، وقرأ تعويذة غريبة. فأخذ القائد يفيق رويدا رويدا حتى استعاد وعيه. ولبث زمنا كالحائر لا يدرك ما حدث. ثم استقرت عيناه على وجه ديدى، فتذكّر، والتهب وجهه بالاحمرار. ومشى إلى مقعده يتعثّر من القهر والخجل.

قال الملك للساحر:

ـ أحسنت أيها الرجل القادر. لكن هل لك سلطان على الغيب أيضا؟ فأجابه الساحر:

ـ نعم يا مولاى .

فقال له الملك :

ـ إلى متى يظل عرش مصر لملوك من ذريتى؟

فبدا على الرجل القلقُ والتهيّب . ففطن فرَعْون وأدرك . فأمّنه على نفسه .

فاستغرق الرجل فى صلاة حارة ، ولبث ساعة لايتحرك ولا يتكلم . نفد صبر الأمير خَعُوفْ فقال له :

ـ لقد أعطاك فرَعْون الأمان على نفسك . فمالك لا تتكلم؟

فكتم الرجل أنفاسه وقال للملك :

ـ مولاى ، لن يجلس على عرش مصر من بعدك ، أحد من ذريتك!

اضطربت النفوس من قوله ، ونظروا إليه نظرات قاسية ، وقطّب فرَعْون جبينه ، واصفر وجه الأمير خَعُوفْ ، وأطبق شفتيه ، وأنذرت هيئته بالويل والهلاك .

وأراد الساحر أن يخفف من وقع نبوءته فقال :

ـ سوف تحكم يا مولاى آمنا مطمئنا حتى نهاية عمرك الطويل السعيد .

فهزّ فرَعْون كتفيه وقال :

ـ دعك من تعْزيتى . وخبّرنى ، هل تعرف من الذى تدّخره الآلهة ليتولى عرش مصر .

فقال الساحر :

ـ نعم يا مولاى، هو طفل لم ير نور الدنيا إلا صباح اليوم .

ـ فمن أبواه؟

ـ أما أبوه فهو الكاهن الأكبر لرَعْ معبود أون . أما أمه فهى السيدة الشابة «ردَه ديديتْ» . وقد تزوجها الكاهن على كبر لتلد هذا الطفل، الذى شاءت الأقدار أن يكون من الحاكمين .

قام فرَعْون هائجا كالأسد، وقام لقيامه القاعدون . ودنا من الساحر، وقال له :

ـ أواثق أنت مما تقول يا ديدى؟

فرد الساحر بصوت مبحوح :

ـ لقد صارحتك يا مولاى بما طالعته فى صحف الغيب .

فقال له الملك :

ـ لا تخف ولا تحزن . لقد بلّغت رسالتك . وستنال ما تستحق من الجزاء الحسن .

وكان الأمير خَعُوفْ فى حالة هياج شديد . أما فرَعْون فقد كتم غضبه، وتحوّل إلى وزيره يسأله رأيه . ودار نقاش حسمه فرَعْون وقال :

ـ أمامنا طفل رضيع على بعد قليل منا . فهيا أيها القائد أعد حملة من العربات الحربية سأقودها إلى أون .

فقال الوزير بدهشة:

- هل يذهب فرَعْون بنفسه؟

فضحك الملك وقال:

- إذا لم أذهب للدفاع عن عرشى، فمتى أذهب؟!

صفحة فارغة

٣

خرجت الحملة الفرَعْونية في مائة عربة حربية ، عليها مائتا فارس ، يتقدم صفوفهم الملك وإلى يمينه الأمير خَعُوفْ وإلى يساره القائد أُرْبُو . وانطلقت شمالا صوب مدينة أون ، وهى تنهب الأرض نهبا ، وتزلزل الوادى زلزالا .

وفى الطريق ، رأوا فى الأفق البعيد غبارا يملأ الجو ويحجب الرؤية . ولما اقتربوا ، استطاعوا أن يروا مجموعة من الفرسان فوق جيادهم ، تعدو فى الاتجاه إليهم . ولما ازدادوا قربا ، وضح لهم أنهم بعض من الفرسان يطاردون شخصا فوق جواد أمامهم . ثم فوجئوا بأن هذا الشخص هو امرأة أنهكها التعب وخارت قواها من مطاردة الفرسان لها .

فلما رأت فرَعْون وجنوده صاحت تستغيث بهم . فتوقف فرَعْون وتوقفت العربات من ورائه ، ونظر إلى الرجال المطاردين للمرأة ، وصاح بهم :

ـ دعوا هذه المرأة .

ولم يعرفوا أنه فرَعْون، فلم يستجيبوا لأمره. وتقدّم ضابط منهم إليه، وقال بخشونة:

ـ نحن قوة من حرس أون، ننفذ أمر كاهنها الأعظم. أما أنتم، فمن أى مدينة؟ وماذا تريدون؟

همّ القائد أُرْبوُأن يزجره، ولكن فرَعْون أشار إليه فسكت. وتنبّه فرَعْون إلى ذكر الكاهن، فأراد أن يستدرج الضابط وسأله:

ـ ولماذا تطاردون المرأة؟

فقال الضابط بغلظة:

ـ أنا لا يسألنى إلا رئيسى.

فصاح فرَعْون غاضبا بصوت كالرَعْد:

ـ اطلقوا سراح المرأة.

ارتعد الضابط، وأيقن أنه أمام رئيس خطير، فسلّ سيفة، وأدى التحية العسكرية، وأطلق سراح المرأة. فأسرَعْت إلى عربة الملك، وارتمت تحتها، وهى تصيح:

ـ أغثنى يا سيدى.. أغثنى.

نزل القائد أُرْبوُمن عربته. وعرفت المرأة أنه رئيس حرس فرَعْون، فقامت وقالت له بتوسل:

ـ بحق الآلهة، أريد مقابلة مولانا الملك!

فسألها أُرْبوُ:

ـ ماذا تريدين منه يا سيدتى؟

فقالت وهى تلهث:

ـ فى صدرى سرّ خطير أريد أن أبوح به لذاته المعبودة.

فأرهف فرَعْون السمع، وسألها أُرْبوُ:

ـ ما هذا السر الخطير يا سيدتى؟

ـ سأبوح به إلى ذاته المقدسة.

ـ ما اسمك وأين تقيمين؟

ـ اسمى سرْجَا. وكنت إلى صباح اليوم خادمة فى قصر الكاهن الأكبر «رَعْ».

ـ ولماذا تركته؟ ولماذا كانوا يطاردونك؟

ـ علىّ يا سيدى أن أصل إلى أعتاب فرَعْون. أريد أن أبوح له بالسر الخطير الذى يضيق به صدرى.

ونفد صبر فرَعْون، فقال للمرأة:

ـ هل رزق الكاهن بطفل هذا الصباح؟

فنظرت إليه فى دهشة وذهول، وتمتمت:

ـ من أدراكم بهذا يا سيدى؟ لقد تكتموا الخبر.

بدا الاهتمام على حاشية الملك، وتبادلوا النظر فى صمت. فسألها الملك بصوته المهيب:

ـ هل هذا هو السر الذى تريدين إبلاغه لفرَعْون؟

ـ نعم يا سيدى. ولكنه ليس كل ما أريد قوله.

فقال لها فرَعْون بحدة:

ماذا تريدين قوله؟ تكلّمى.

فاندفعت المرأة تقول:

ـ أحسّت مولاتى السيدة درَه ديديتْ بآلام الوضع منذ الفجر. وكنت وصيفتها التى تقوم بخدَمتهاَ ورَعْايتها. وقبيل الوضع بزمن يسير، دخل علينا الكاهن الأكبر، وبارك سيدتى، وصلّى للرب رَعْ صلاة حارة، ثم بشّر سيدتى بأنها ستلد طفلا ذكراً، وأنه سوف يرث عرش مصر المكين. وقال لها، وهو لا يملك نفسه من الفرح، إن تمثال الرب المقدس زفّ إليه هذه البشرى.

ومن فرحته، لم يكن منتبها لوجودى. فلما وقع بصره علىّ، انقبض صدره، وارتسم القلق على وجهه. وللحيطة والحذر، قبض علىّ وحبسنى فى مخزن الحبوب.

ولكنى تمكنت من الفرار، وامتطيت جوادا، وانطلقت به لأبلغ الملك ما سمعت. والظاهر أن الكاهن أحسّ بفرارى، فأرسل هؤلاء الجنود ورائى، ولولاكم لقادونى إلى موتى.

وكان الملك وصحابته يستمعون إلى سرْجَا بانتباه ودهشة، فتأكدت لديهم نبوءة الساحر ديدى العجيبة. وكان الأمير خَعُوفْ أشدّهم جزعا.

وقال فرَعْون للمرأة:

ـ سوف يجزيك فرَعْون عن إخلاصك خير الجزاء.

ثم أمر الملك قائد عربته بالسير، فانطلقت ومن ورائها العربات إلى أون.

صفحة فارغة

٤

كان كاهن رَعْ يجثو على ركبتيه إلى جانب سرير زوجته، ويصلي صلاة حارة. ولما أحسّت بفراغه من الصلاة، قالت له بصوت خافت:

ـ سمعت أخبارا عن سِرْجَا؟

فتنهّد الرجل وقال:

ـ سيلحق بها الجنود بأمر الرب.

فقالت بقلق:

ـ مولاى! هل تضمن لحاقهم بها؟

ـ لا تقلقي. هداني الرب إلى حيلة أخرى. ولكني أخشى عليك، ألا تحتملي الشدة، وأنت والدةٌ اليوم.

فقالت بتوسل:

ـ افعل يا زوجي ما فيه نجاة طفلنا، ولا تُبَال بضعفي، فالأمومة تمدّني بالقوة.

فقال الكاهن متألّما :

ـ أعددت عربة لتذهبا بها إلى عمّك فى قرية سنكا . وجعلت فى ركن منها مكانا ترقدين فيه مع الطفل ، وجهّزت غطاء يخفيكما عن الأنظار . وستقودها وصيفتك كاتا .

ـ كاتا ولَدْت أيضا ضحى اليوم . فنادى على زايا بدلا منها .

فدهش الرجل وقال :

ـ أولدت كاتا؟ على كل حال زايا لا تقل إخلاصًا عنها .

ونادى على زايا . فأتت الوصيفة سريعا ، فقال لها :

ـ سأعهد إليك بسيدتك والطفل لتسيرى بهما إلى قرية سنكا . وعليك بالاحتراس فى الطريق .

فقالت زايا بإخلاص :

ـ إنى فداء لمولاتى وطفلها المبارك .

ووضع الرجل زوجته على لحاف ، ونقلها عليه ، هو وزايا ، إلى العربة ، وأرقداها فى مكانها بها . ثم صعد الكاهن وأتى بطفله ، الذى كان يبكى ويصرخ ، فقبّله قبلة حارة ، ووضعه فى حضن أمه بالعربة . ورأى «رده ديديت» تنتحب فقال لها ، وقلبه يتقطّع :

ـ ثبّتى قلبك من أجل طفلنا العزيز ، ولا تدعى للخوف سبيلا إلى نفسك .

فقالت المرأة وهى تبكى :

ـ إنك لم تسمّه بعد .

فقال وهو يبتسم :

ـ سأسميه باسم أبى . . «ددْفْ . . ددْفْ رَعْ» . اللهم اجعل اسمه مباركا ، وادفع عنه كيد الكائدين .

ووضع الغطاء على العزيزين . وأقعد زايا مقعد السائق ووضع زمام الثورين بين يديها وقال لها :

ـ سيرى على بركة الرب الحافظ .

وما أن تحركت العربة ، حتى فاضت عيناه بالدمع الغزير . وهرول إلى السلم ، وصعد بقوة شاب إلى النافذة التى تطل على الطريق . وراقب العربة التى تحمل قلبه ووجدانه .

وفجأة ، ظهرت كتيبة فرَعْونية ، وأوقفت العربة .

يارب السماء ! هل نجحت سرْجًا فى مهمتها ؟ لماذا جاء جند فرَعْون ؟ هل ليقتلوا الطفل الحبيبَ الذى شرح الرب به صدره .

واستمر الكاهن يحدث نفسه : إن عددا من الجند يحيط بالعربة ، وواحدا منهم يطرح الأسئلة على زايا البائسة . ترى عمّ يسألها ؟ وبم تجيبه ؟ حياة طفلى وزوجتى رهن بكلمة واحدة تنطق بها زايا . رباه ! يارَعْ المعبود ، ثبّت قلبها ، وأجر على لسانها كلمة الحياة لا الموت ، وانقذ طفلك الحبيب لتقضى قضاءك الذى بَشّرت به .

وفجأة ، صاح الكاهن بفرح شديد :

ـ الحمد لرَعْ . . تركوا العربة تسير فى طريقها من غير سوء . الحمد لك أيها الرب الرحيم !

٥

تنفّس الكاهن الصعداء، وأحسّ لفرحه، بحنين إلى البكاء، ومشى إلى منضدة عليها إبريق من الفضة، وصب منه، فى كأس، ماء قراحا روى به عطشه.

وبعد قليل، دخل عليه خادم يضطرب، يخبره أن قوة من حرس الملك تحتل القصر، وأن رئيس القوة يطلبه سريعا. فتظاهر الكاهن بالثبات، ولبس العباءة المقدسة والقلنسوة الكهنوتية. وغادر حجرته إلى الفناء، ورفع يده بالتحية وقال بصوته الجليل:

ـ حللتم أهلا وسهلا يا أبنائى.. وليبارككم رَعْ المعبود.

فسمع صوتا مهيبا يرد عليه: الشكر لك يا كاهن رَعْ المعبود.

فانتفض جسمه لدى سماعه هذا الصوت، وزاغت عيناه تبحثان عن صاحب الصوت، واستقرتا على قلب القوة، فتولاه العجب والرَعْب أن يأتى فرَعْون بذاته إلى بيته.

فأسرَعْ إلى عربته، وسجد بين يديه، ورحّب به بصوت متهدّج.

ردّ فرَعْون على ترحيبه ، وأفهمه أنهم جاءوا فى أمر خطير وعاجل . فانحنى الكاهن وقال :

ـ رهن إشارة مولاى .

فسأله الملك :

ـ لماذا الآلهة تختار الفراعنة وتولّيهم عرش مصر؟

فقال الكاهن بثبات :

ـ ليصلحوا البلاد ويسعدوا العباد .

ـ أحسنت أيها الكاهن . . فهل تستطيع أن تقول لى ماذا يجب على فرَعْون نحو عرشه؟

ـ أن يقوم بواجباته ، ويحافظ عليه محافظته على شرفه .

ـ أحسنت أيها الكاهن الفاضل . والآن خبّرنى ماذا ينبغى أن يفعله فرَعْون لو هدّد أحدٌ عرشَه؟

خفق قلب الكاهن ، وأيقن أنه يحكم على نفسه بجوابه . ولكنه أبَى إلاّ أن يقول الحق ، فقال :

ـ أن يبيد الطامعين .

فابتسم فرَعْون وقال بصوت رهيب :

ـ أيها الكاهن . . وجدنا الذى يهدّد العرش .

فنكس الكاهن عينيه ، وغلبه الصمت . فاستطرد فرَعْون :

- وللعجب . . وجدناه طفلا؟

- طفلا يا مولاى؟

استبد الغضب بفرَعْون وصاح :

- أتتجاهل أيها الكاهن؟ وأنت تعلم أنك أبو الطفل!

فتدفق الدم إلى وجه الكاهن، وعصر الألم قلبه . ولم يمهله فرَعْون وقال :

- وقد أقررتَ منذ لحظة، أنه ينبغى لفرَعْون أن يهلك من يهدّد عرشَه . أليس كذلك؟

- بلى يا مولاى .

استمر فرَعْون يضغط ويضغط فى مناقشته، حتى أدرك الكاهن أن عليه هو أن يقوم بقتل طفله . . أداء للواجب نحو عرش فرَعْون .

وأخذ يسأل نفسه :

- ماذا يفعل، وفرَعْون وزملاؤه ينتظرون كلمته؟ هل يلحق بطفله العزيز، ويغمد خنجره فى قلبه؟ رباه . . كيف المخرج؟

ووسط دوّامة الحيرة والارتباك، لمع فى ذهنه خاطر سريع . . كاتا وطفلها الذى ولدته فى الصباح!

إنها فكرة شيطان لا كاهن . ولكن ماذا يصنع؟

وأحنى الكاهن رأسه، وذهب ليرتكب أشنع جريمة أخفى خنجره فى عباءته ودخل الحجرة لا تكاد تحمله قدماه. . وانتبهت إليه كاتا، فابتسمت ابتسامة امتنان وشكر، وظننته جاء يباركها ويبارك طفلها!

دارت الأرض تحت قدميه، وخذلته نفسه، ووقف مذعورا. ولكن أين المفر؟ وكيف الخلاص؟ وفرَعْون واقف بالباب.

اشتدت الحيرة بالكاهن، حتى أذهلته عن وعيه، فزأر زئيرا مخيفا، واستل خنجرا وطعن به نفسه، فاستقر فى قلبه فسقط على الأرض جثة هامدة.

ودخل الملك الحجرة يتبعه رجاله، وجعلوا ينظرون مشدوهين إلى جثة الكاهن وإلى المرأة الوالدة الفزعة. أما الأمير خَعُوفْ فقد خشى ضياع الفرصة، فاستل سيفه وهوى به على الطفل. فأدركت الأم بغريزتها غرضه، فألقت بسرَعْة البرق نفسها على طفلها. فأطاح السيف رأسها ورأس الطفل بضربة واحدة.

نظر الملك إلى ابنه، وغلبهما وجوم شديد، لم يخرجهما منه إلا الوزير خعْمين إذ قال:

ـ مولاى، لنغادرْ هذا المكان الدامى!

وخرجوا جميعا وهم سكوت!

صفحة فارغة

٦

سارت العربة على خطى الثورين البطيئة تقودها زايا. فقطعت طريق أون فى ساعة من الزمان ثم اجتازت باب المدينة الشرقى وانحرفت إلى الطريق الصحراوى الذى يؤدى إلى قرية سنكا، حيث يقيم أصهار سيدها الكاهن، ولم تستطع زايا أن تنسى إحاطة الجند بها، وأسئلتهم لها. ولولا ثباتها ورباطة جأشها ما تركوها تسير بسلام. وآه لو عرفوا مَنْ تحملهم عربتها!

ونظرت إلى الوراء، لترى سيدتها نائمة وطفلها بحضنها. يالها من نومة بشعة لسيدة وَلَدت اليوم. ولكن ما أحلى الأمومة رغم نومتها هذه. ليتها هى تذوق الأمومة، ولو مرة واحدة، وتدفع حياتها ثمنا لها.

فزايا كانت عاقرا. وكم تمنت على الآلهة طفلا. وكم استشارت الأطباء، وسألت السحرة، ولجأت إلى الحشائش والعقاقير دون جدوى. وكان زوجها كاردا شديد الحزن، فالعمر يتقدم به، دون غلام له يحبو فى داره. ويدفىء صدره بالأمل والخلود وآخر مرة، وهو يغادر إلى منف، حيث يشتغل فى بناء الأهرام، أنذرها

بالزواج من غيرها إذا لم تلد له طفلا وانقضى على سفره شهر وشهران وعشرة أشهر وهى تتحسس آيات الحمل ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم دون جدوى وبلا أدنى أمل .

«رباه! لا رحمنى الرب، ولا الطب ينفع، ولا كاردا يعذر! آه. . لو كان لى مثل هذا الطفل!» .

وعند ذاك سمعت زايا صوت سيدتها ينادى «زايا» فرفعت اللحاف ووضعته جانبًا، ورأت سيدتها والطفل فى حضنها نائمًا، وكانت متعبة والاصفرار يعلو وجهها الجميل، فسألتها :

كيف حالك يا سيدتى؟

فأجابتها بصوتها الضعيف :

بخير بفضل الأرباب . .

هل زال الخطر عنا؟

فقالت الخادمة اطمئنى يا مولاتى، لقد بعد الخطر عنك وعن موالاى الصغير .

فتنهدت المرأة وسألتها :

هل باقى أمامنا سفر طويل؟

فقالت زايا برقة :

يبقى أمامنا ساعة على الأقل. . اقترح أن تنامى يا سيدتى فى

حمى الرب فتنهدت ردّه ديديتْ ونظرت إلى الطفل النائم بمحبة وحنان، ثم أغمضت عينيها طلبًا للنوم.

وسرحت زايا في التفكير، إلى أن رأت نفسها تسير بهذا الطفل إلى كاردا، وتقول له «لقد ولدت لك هذا الطفل الجميل». ورأت زوجها يطير من الفرح ويحتضن «ددِفْ الصغير»، ويقبّله ويقبّلها! ياللسعادة والفرحة!

ولما أفاقت زايا، وفتحت عينيها، تذكرت العربة والسيدة وطفلها الوليد ددِفْ، وحلمها الطويل بعد أن غلبها سلطان النوم.

ولكن أين هي؟ وفي أية ساعة من الليل؟

ونظرت فيما حولها، فرأت فضاء مظلما، وأدركت أن الثورين ضلاّ بالعربة الطريق، وأن المكان حولها خال من الحياة. فانكمشت مرتجفة مذعورة.

وخُيِّل إليها أنها ترى في الظلام أشباح قافلة من البدو. فتذكرت ما يُرْوَى عن البدو، وخطفهم للتائهين، وقطعهم الطريق على القوافل. وأدركت أن العربة بالثورين والمرأتين، ستكون غنيمة ثمينة لهم، تغريهم بالخطف والاستيلاء. فاشتد بها الخوف، وجُنّ جنونها. فقفزت من مقعدها، واتجه نظرها إلى المرأة النائمة وطفلها. وبلا وعي، مدّت يديها إلى الطفل، ورفعته بخفة، وأحكمت اللفة حوله، وأطلقت ساقيها للريح صوب أنوار المدينة.. تهرب بالطفل.. بعد أن خطفته من أمه!

خيّل إليها وهى تعدو، أنها سمعت صوتا ينادى عليها بفزع. ظنته صوت سيدتها، وقد أحاط البدو بها. فازداد بها الرَعْب، وضاعفت سرَعَة عدوها، وظلّت على سرَعْتها إلى أن استهلكت قوتها الجنونية، فهدأت من سرَعْتها، وثقلت خطاها، وارتمت على ركبتيها وهى تلهث بعنف وشدة. وكانت لا تزال مذعورة مجنونة، تتلفت يمنة ويسرة، لا تدرى أين الهلاك وأين النجاة.

وخيّل إليها أنها تسمع وقع عجلات وصهيل خيل. وبدت فى الظلمة أشباح راكبين آتين من الشمال. ولم تدر إن كانوا من البدو أم لا. ولم تستطع الاختفاء لأن ددُفُ علا صوته بالصراخ والعويل.

فأسلمت نفسها للمقادير، واستغاثت بالراكبين. فأتى الركب سريعا، وسمعت صوتا يسأل من المستغيث؟ خيّل إليها أنه ليس غريبا عنها، ولكن الحذر مطلوب، فغيَّرت نبرة صوتها وقالت بلهجة ريفية، إنها امرأة ضلت الطريق، ولحقها الظلام، وتخشى على طفلها من برد الليل الشديد.

وسألها صاحب الصوت:

- إلى أين تقصدين؟

وبدأت تطمئن إلى أنهم جنود مصريون وليسوا بدوا. فقالت إنها تقصد منف. فضحك الرجل متعجبا:

- منف يا سيدة. ألا تعلمين أنها بعيدة؟

ـ الأوفق أن يعود بها جندى إلى بلدتها .

فقال الرجل الأول :

ـ كلا يا خَعْمِينْ . . بل سنحملها معنا إلى منف .

واتجه إلى المرأة وسألها :

ـ ومن لك فى منف؟

ـ زوجى كاردا ، يشتغل فى بناء هرم مولانا فرَعْون .

ـ مرحبا بكِ فى ركبنا .

وصدع خَعْمِينْ بأمر مولاه ، فنزل من عربته ، وذهب إلى السيدة وعاونها على القيام ، وسار إلى أقرب عربة ، وأركبها وطفلها ، ووصّى عليهما جندى العربة .

وأمر فرَعْون قائد عربته بالمسير . فانطلق الركب صوب منف . . يشق أجواز الظلماء .

صفحة فارغة

٧

وصلت زايا إلى منف عند منتصف الليل . وقد نفحها الملك بقطعتين من الذهب ، فسجدت بين يديه شاكرة . وودّعته فى ظلمة الليل دون أن ترى وجهه ، فلم تعرفه . وحسبته واحدا من القواد .

وكانت زايا فى حالة بائسة من الإرهاق والفزع . وبحثت عن فندق متواضع ، تبيت فيه بقية ليلتها . ودخلت الحجرة التى أعطوها لها . ووجدت نفسها والطفل وحدهما ، فتنهدت تنهيدة عميقة وهى ترتمى على السرير . ومضت تتقلب على فراشها ، تؤرقها أشباح فعلتها ، وذاقت مر العذاب والخوف إلى أن جاءها النوم .

واستيقظت على بكاء الطفل ، وكانت أشعة الشمس تنفذ إلى الحجرة . فقبّلت فمه بحنان ، وهزّته بلطف ، وطلبت من خادمة الفندق زجاجة لبن ماعز لتغذيه به . ثم حملته بين ذراعيها ، ومشت به فى الحجرة ذهابا وإيابا ، ثم صاحت بفرح : تبسّم ياددِفْ . تبسّم وافرح ، فسترى والدك . وتنهدت وقالت لنفسها :

ـ تُرَى : هل سأفوز به ، بعد أن انتهى أمر أمه وأبيه؟ فالبدو لا بد

خطفوا أمه، وجنود فرَعْون لا شك قتلوا أباه. وما كنت أستطيع فعل شيء لإنقاذ أمه. هل كنت أستطيع؟ لا.

أعجبتها الفكرة، وارتاحت لها، وأخذت ترددها. بل زادت عليها: إنها أحسنت صنعا بالهرب، وأحسنت صنعا بخطف الطفل. فلم يكن من الرحمة أن تتركه فى حضن أمه ليقتله البدو. فحسناً فعلت. وليس لها أن تحزن. أراحها هذا التفكير. ووصلت به إلى أنها أصبحت أم ددِفْ دون شريك، وكاردا أبوه. فأخذت تهزهزه وتغنى: ددِفْ بن كاردا.. ددِفْ بن زايا.

وخرجت من الفندق، واستأجرت عربة ذات جوادين إلى سطح الهضبة، لتفاجئ كاردا، سوف تذهله المفاجأة. سوف يقول لها وهو لا يملك نفسه من الفرح: «وأخيراً.. ولدت يا زايا! صحيح هذا طفلى!! تعالى إلىّ. تعالى..» فتقول وهى ترفع رأسها بكبرياء «خذ طفلك يا كاردا، وقبل قدمه الصغيرة.. واسجد شكرا للرب رَعْ. إنه ذكر. وقد سميته ددِفْ».

ووصلت إلى مكتب التفتيش، بعد أن مرّت بمعبد أوزوريس وتمثال أبى الهول. وشاهدت النهر الذى شقّه العمال ليصل الهضبة بالنيل، تجتازه المراكب الضخمة تحمل الصخور الجبارة.

ـ ماذا تريدين يا امرأة؟

ـ جئت أبحث عن زوجى يا سيدى.

ـ ومن زوجك؟

ـ عامل يا سيدى .

وضرب المفتش على المكتب بيده ، وقال بحدة :

ـ وما الداعى إلى تعطيله عن عمله ، وإقلاقنا؟

ذعرت زايا ، ولم تستطع أن تجيب . ونظر الرجل إلى الطفل الذى تحمله ، فَرَقَّ قلبه ، وسألها :

ـ هل جئت تبشّرينه بهذا المولود؟

تورّد خداها ، وظهر الحياء على وجهها . فابتسم الرجل وسألها :

ـ ما اسم زوجك ، ومن أى بلد هو يا سيدة؟

ـ اسمه «كاردا بن عن» ، من أون ، ومسقط رأسه طيبة . . يا سيدى .

ونادى المفتش كاتبا ، وأمره بأن يبحث عن الاسم بين الدفاتر . وبعد قليل عاد الكاتب إلى رئيسه ، ومال على أذنه ، وهمس إليه ، ورجع إلى عمله . نظر المفتش إلى وجه المرأة طويلا ، ثم قال بصوت خافت :

ـ آسف يا سيدتى . عزاء لك فى زوجك . مات فى ميدان العمل والواجب .

انطلقت منها صرخة رَعْب وفزع . وظلت فترة ذاهلة . ثم سألت المفتش بتوسل أليم :

ـ أحقا، يا سيدى، مات زوجى كاردا بن عن؟

ـ تشجّعى يا سيدة.. هذه إرادة الآلهة!

فأجهشت زايا فى البكاء، ثم عادت تسأل:

ـ ألا يجوز يا سيدى أن يكون الميت شخصا آخر يحمل اسم زوجى؟

ـ للأسف، كاردا بن عن هو العامل الوحيد الذى استشهد من عمال أون.

ـ يا لسوء حظى يا سيدى.. لماذا تصوّب الأقدار سهمها إلى صدرى.. الضعيف؟

ـ هدئى روعك.

ـ ليس لى رجل سواه يا سيدى.

ـ اطمئنى يا سيدتى. فرَعْون لا ينسى رَعْاياه. لقد أمر ببناء بيوت لأسر العمال الذين يموتون فى أثناء العمل، وقرر لهم إعانات شهرية. هل لك أبناء آخرون؟

ـ ليس لى فى الدنيا غير هذا الطفل.

ـ إذن ستقيمان فى حجرة نظيفة. والإعانة كافية لكما.

وغادرت زايا مكتب مفتش الهرم، أرملةً بائسةً، تندُب زوجها، وتتحسّر على حظّها.

٨

أمضت زايا أيامها الأولى فى سكنها الجديد، لا يفارقها الحزن والبكاء على زوجها الفقيد. وبعد عدة شهور، أخذت تضيق بهذا المسكن، وتحس بأنه غير لائق بها وبابنها.

وفى أثناء تلك الشهور، كان يزورها المفتش «بشارو»، عندما كان يجيء للتفتيش على المساكن. وأحست بعطفه وطيبة قلبه. وانتهزت فرصة حضوره مرة، وشكت له من الإقامة فى هذا المسكن، وقالت له:

ـ لعلى أكون ذات منفعة فى غير هذا المكان يا سيدى. فقد خدمت طويلا فى قصر أحد أغنياء أون. وعندى خبرة عظيمة بأعمال الوصيفات.

نظر الرجل مليّا إليها، فتبيّن حسنها وجمال عينيها العسليتين، فقال:

ـ فهمت.. فهمت يا زايا. ليس ما تشكين منه هو العطلة أو الخمول.. إنما أنت أَلِفْتِ نعيم القصور، وحياتها.

فــابتــســمت فى رقــة ، وكـــشــفت بذكــاء عــن وجــه ددْف الجميل ، وقالت :

ـ هل يليق هذا المكان بمثل هذا الوجه الحسن؟

فقال المفتش :

ـ كلا . . ولا بك يا زايا!

فاحمر وجهها ، وأسبلت عينيها . فقال الرجل :

ـ عـندى القصـر الـذى تودّين يا زايا . لقد ماتت زوجتى وتركت لى ابنين صغيرين . وعندى أربع جوارٍ ، فهل تكونين الخامسة؟

سعدت زايا بهذا العرض ، وانتقلت وطفلها ددْف للعمل عند مفتش الهرم فى قصره الجميل المطل على النيل . كان القصر بدون ربّة بيـت تحسن تدبيره . وكان ابنا المفتش الصغيران ، خنى ونافا ، لا يجدان من يحسن رَعْايتهما . فكانت الفرصة مواتية لزايا ، فتفانت بخبرتها وذكائها ، وأحسنت تدبير أمور القصر ، وغمرت خنى ونافا برَعْايتها وحبها وحنانها ، فأحباها حبّا جمّا ، وتعلّقا بها كأمّ لهما فتزوجها بشارو . وهكذا ابتسم الحظ لزايا ، وأصبحت زوجة مفتش الهرم العام ، وسيدة لقصره ، وأمّا لابنيه الصغيرين ، العزيزين فضلا عن طفلها الوليد ددْف .

٩

تمتع ددْفْ بطفولة سعيدة فى هذا القصر الذى انتقل إليه. وتعلم فى ختـامَ طفـولته الأولى، كيف يقـول لزايا «مـامـا»، وأن يقـول لبشارو «بابا». وكـان الرجل يتقبّلها بسرور. وكان يتفـاءل بوجهه الصبوح الجميل.

وحين بلغ الثالثة، هجر حضن زايا، وأخذ يحبو فى الحجرة. وأتى له المفتش بشارو بهدايا كثيرة من اللعب. فكان يعيش معها، وينسى نفسه، وينسى الدنيا فيها.

وفى ذلك الحين، وُلدَ فى القصر، الكلب جامـوركـا. فـفـرح ددْفْ بمولده، وأحبّه، وتعلّق به. وكانا لا يكادان يفترقان. إذا أوى دَدْفْ إلى سريره، رقد جاموركا إلى جانبه، وإذا قعد، جلس قبالته وبسط ذراعيه، أو أخذ يلعق خدّيه ويديه!

وفى الربيع، كـان خنى ونافا يقفزان إلى الماء فى بركة القصر، ويسبحان ويلعبان بالكرة. وكان ددْفْ يقف إلى جانب جاموركا، يشاهدهما بسرور ويحسّ بغيرة. فيطلب من أمه أن يفعل مثلهما.

فترفعه من تحت إبطيه، وتغطّسه فى الماء، فيلعب بقدميه، ويصيح فرحا مسرورا.

وبعد اللهو واللعب، كانوا يذهبون جميعا إلى الحديقة الصيفية، وتجلس زايا على الكنبة، وحولها ددْفْ وخنى ونافا، وأمامهم جاموركا باسطا ذراعيه، فتقص زايَا عليهم الحكايات الجميلة. وكانوا يستمعون إليها بشغف شديد.

وبلغ ددْفْ الخامسة من عمره، وكان نافا بلغ العاشرة، وخنى الحادية عَشرة. واختار خنى جامعة بتاح ليدرس فيها الدين والأخلاق والعلوم السياسية. أما نافا فالتحق بمعهد خوفو للفنون الجميلة، لأنه كان يهوى الرسم والتصوير. وجاء الدور على ددْفْ ليلتحق بالمدرسة الابتدائية. وأمضى فى تعليمه الأساسى سَبع سنوات. وكان متفوقا دائما وينجح بامتياز.

وفى هذه الفترة، توثّقت المودّة بينه وبين أخيه نافا. وكان يجلس إلى جانبه وهو يرسم أو يصوّر، يتابع رسومه وصوره الجميلة. وكان نافا يملك «قلب» ددْفْ بضحكه الذى لا ينقطع، وبروحه المرحة ونكاته اللطيفة. أمَا خنى، فكان له أثره الكبير على «عقل» ددْفْ، وجعله يجاوز المبادئ فى العلوم، ويصل إلى الإلهيات وَالعلوم العالية. وكان ددْفْ يمطر خنى بالأسئلة فيجيبه خنى بصبر، ويروى له الأساطير فىَ سنّه المبكرة. وكان ددْفْ يجلس القرفصاء مصغيا إلى أخيه، وجاموركا يعطيه وجههَ. بينما يعطى الأستاذ خنى وأساطيره.. ظهره!

صفحة فارغة

١٠

بلغ بشارو الخمسين من عمره، وظل على طيبة قلبه، ولكنه المفتش العام لهرم خوفو. فالويل لمن يناديه باسمه فقط دون أن يذكر أنه المفتش العام!

وبلغت زايا الأربعين، واحتفظت بجمالها وذكائها، والذى يشاهدها سيدة لقصر بشارو، لا يتخيل أنها كانت زوجة العامل كاردا، ووصيفة السيدة ردّه ديديت.

وأكمل خنى تعليمه العالى، والتحق بالدراسات العليا، وانخرط فى سلك الكهنوت، فقد ورث عن أمه حب التدين.

وحصل نافا على أعلى شهادة فى الرسم والتصوير، واستأجر مكانا فى أهم شوارِعْ منف، ليعرض فيه لوحاته الفنية.

وكبر جاموركا، وبدت عليه القوة والشدة، وأصبح نباحه يحدث دويّا، ويبعث الرَعْب عند القطط والثعالب والذئاب.

أما ددِفْ، فقد بلغ الاثنى عشر عاما. وكان عليه أن يختار اتجاهه

ويحدد مستقبله . ولم يحدث أن فكّر من قبل فى هذه المسألة الخطيرة . وكان خنى يحسب أنه سيتجه إلى الكهنوت ليصبح كاهنا مثله . فقد كانت أسئلة ددْف له ، كثيرة ومتعمقة ، فى الكون والفلسفة . أما نافا فكان أصدق حسًا وأصح نظرا . فقد كان يشاهد ددْف وهو يسبح ويجرى ، ويرى جسمه النامى وقده الممشوق ، ويتخيله وهو لابس الزى الحربى فيقول لنفسه «يا له من جندى» . وكان لنافا تأثير كبير على ددْف ، للحب المتبادل بينهما ، لذلك حبّبه فى الجندية . وباركت زاياً هذا الاتجاه وتحمّست له ، ولم يعد يجذبها شىء فى الأعياد إلا منظر الجنود والفرسان .

أما بشارو ، فترك الحرية كاملة لددْف مثلما فعل من قبل مع خنى ونافا ، وفقط عزّ عليه . . ألا يخلفه أحد من أبنائه فى وظيفته الخطيرة . . المفتش العام لهرم خوفو !

واستقر رأى ددْف . . واختار الجندية .

١١

حلّت ساعة الوداع عند الفجر . وقبّله بشارو وهو يودعه ويقول له :

ـ أنت الآن طفل يا ددْفْ ، ولكنك ستكون جنديا ماهرا . إنى أتنبأ بهذا ، ونبوءة بشارو خادم فرَعْون لا تخيب .

وقبّل ددْفْ يدى والده ، وخرج مع والدته ، فوجدا خنى ونافا منتظرين فى الصالة . وضحك نافا ، وقال :

ـ هيا أيها الجندى الباسل . العربة فى الانتظار .

فحضنته أمه وقبّلته ، والدموع تنهمر من عينيها . وهبط ددْفْ السلم بين أخويه ، وركب معهما العربة ، وتحركت ، وزايا تَنظر إليها من خلال دموعها .

وقبل شروق الشمس ، بلغت العربة «مرَعْى أبيس» أجمل ضواحى منف ، حيث تقع المدرسة الحربية . وكان الميدان أمام المدرسة يزدحم بالطلبة الراغبين فى الالتحاق . ومع كل طالب منهم واحد أو أكثر من أقاربه .

وكـان كـل طـالـب ينتظـر دوره فى النداء عليــه، فـيــذهب للكشـف. وإما أن تقبـله المدرسة فيبقى، وإما لا تقبله.. فيعود من حيث أتى.

وجاء دور ددْفْ، وسمع المنادى يصيح «ددْفْ بن بشارو» فخفق قلبـه، وسـار إلى البـاب الرهيب. وأدخـلـهَ جنـدى إلى حـجـرة خـلـع الثيـاب. وفحـصه الطبيـب عـضوا عـضـوا، وألقى نظـرة عامـة عـلى هيئتـه، ثم قـال للجنـدى: «مقبـول». فارتدى ددْفْ ثيابه وهو يودّ أن يقفز من الفرح. وخرج إلى فناء المدرسة، لينَضم إلى المقبولين قبله.

وانتهت عـمليات الكشف والاختبار، وظل الناجحون ينتظرون فجاءهم ضابط من ناحية الثكنات، وألقى عليهم نظرة صارمة، وصاح بهم:

ـ من هذه السـاعـة، على كل منكم أن يودّع الفـوضى وداعـا أبديا، ويعوّد نفسه على النظام والطاعة. كل شىء من الآن يخضع للنظام الصارم، بما فيه الأكل والشرب والنوم.

ورتّبـهم الضابط فى صفّين، وسار بهم إلى الثكنات، واستلم كل منهم مـلابسه الحربية ثم تفرقوا إلى عنابرهم. وأمرهـم الضـابط بأن يخلعـوا مـلابسـهم المعـتـادة، ويرتدوا الملابس الحـربـيـة، وأن يخرجوا إلى الفناء عند سماعهم صوت النفير. ونفخ فى النفير، فأسرَعْوا إلى الفناء، ورتّبهم الضابط فى صفين مستقيمين.

وحضر مدير المدرسة، وهو ضابط كبير برتبة قائد، فى لباسه الرسمى، يحمل النياشين والأوسمة. وخطب فيهم قائلا:

ـ كنتم إلى الأمس صغارا أحرارا. واليوم تبدءون حياة الرجولة الحقة. كانت أنفسكم ملكا لكم. أما اليوم فهى ملك الوطن وفرَعْون. واعلموا أن حياة الجندية هى القوة والتضحية. فعليكم بالنظام والطاعة. لتقوموا بواجبكم المقدس نحو مصر وفرَعْون.

ثم هتف المدير باسم خوفو فرَعْون مصر. وردد الطلبة هتافه. ثم أمرهم أن ينشدوا نشيد «يا آلهة احفظى ابنك المعبود، وملكه السعيد، من منبع النيل إلى مصبِّه».

وامتلأ جو الفناء الواسع بأصوات العصافير، تغنى فى حماس وجمال، وتجمع بين الأرباب وفرَعْون ومصر فى نغمة واحدة.

وفى المساء، حين رقد ددْفْ لأول مرة على فراش غريب فى جو جديد، أصابه الأرق، وتملَّكته الوحشة، فتنهّد من أعماق نفسه.

وتراءت له فى ظلمة العنبر أطياف سعيدة من بيت بشارو.. زايا، ونافا وخنى وجاموركا.. يلعق خدّه ويحييه بذيله.

ثم نام نوما عميقا، استيقظ منه على النفير عند مطلع الفجر. قعد فى سريره منتبها، ونظر حوله، فرأى أقرانه يغالبون سلطان النوم بصعوبة. وعلت أصوات التثاؤب والتذمر، واختلط بها الضحك أيضا.

لا راحة بعد اليوم. فقد بدأت حياة الجندية.

١٢

هبت نسمة من الفرح على قصر بشارو. وكان جاموركا يتمطّى، وينبح ويعدو فى ممرات الحديقة. وكانوا جميعا ينتظرون. فسمعوا جلبة فى الحديقة، وعلا صوت خادم يقول بفرح: «سيدى الصغير». فهبّت زايا وجرت إلى نهاية الطرقة، ورأت ددْفْ فى بذلته البيضاء وقلنسوته الفرَعْونية. ففتحت ذراعيهاَ، ولكن جاموركا كان أسرَعْ منها. فهجم على سيده، واحتضنه بيديه، وعلا نباحه، يشكو إليه عذاب الشوق والحنين. فأزاحت زايا الكلب جانبا، وضمّت ابنها العزيز إلى قلبها، وأشبعته لثما وتقبيلا، وهى تقول له:

ـ ردَدْت إلىّ الروح يا بنى. كم أوحشتنى، وكم هزّنى الشوق إليك. عزيزى، مالك أنحف كثيرا مما كنت. ولفحت الشمس وجهك. أنت متعب يا ددِفْ. أين مرحك؟

وأتى نافا مع جلبته وضحكه، وقال محيّيا أخاه:

ـ أهلا بالضابط العظيم.

فابتسم ددْفْ، وسار بين أمه وأخيه، وجاموركا يرقص أمامه ويقطع عليه الطريق. واستقبله المفتش استقبالا عاطفيا، ونظر إليه وقال:

ـ تغيّرت يا بنى فى هذين الشهرين. وبدت عليك الرجولة حقا. وقد فاتك الاحتفال بالهرم العظيم. ولكن لا تأسف. سآخذك لمشاهدته. فأنا لازلت، ولا أزال، مفتشا حتى أحال إلى المعاش. ولكن لماذا أنت نحيف ومتعب يا بنى؟

فضحك ددْفْ، وقال ويدُه تعبث برأس جاموركا:

ـ الحياة العسكرية شديدة قاسية. ونقضى كل النهار بين الجرى والسباحة وركوب الخيل.

فقالت الأم:

ـ لتحفظك الآلهة يا بنى!

وسأله نافا:

ـ وهل ترمى الرمح وتطلق السهام؟

فأخذ ددْفْ يشرح لأخيه نظام المدرسة، وهو مفتون بها، ويذكر له برامج الدراسة والتدريب فى كل سنة من سنواتها الست.

فقال نافا:

ـ يحدثنى قلبى بأنى سأراك قائدا كبيرا يا ددْفْ.

وتذكر ددِفْ أمرا مهما :

ـ أين خنى ؟

فأخبره بشارو أن خنى انخرط فى سلك الكهنوت ، وأنهم لن يروه قبل أربع سنوات ، فترة التجربة العظيمة .

تضايق ددُفْ وشعر بالشوق إلى معلمه الأول . وأخرجته زايا من ضيقه وسَألته :

ـ وكيف نراك بعد ذلك ؟

ـ فى أول كل شهر .

وأخذت الزيارة تتكرر كل شهر ، وتنتهى كلمح البصر . ورجع ددُفْ إلى طبيعته المرحة ، وزال عن جسمه التعب ، وعادت إليه الَفتوة والقوة ، وأخذ يزداد نموا وجمالا .

ودارت عجلة الزمان . وسار ددُفْ بخطى واسعة نحو التفوق وإتقان الفنون الحربية . فاكتسبَ شهرة فى المدرسة الحربية ، لم يحصل عليها تلميذ قبله .

صفحة فارغة

١٣

سار ددْفْ فى شارَعْ سنفرو، يلفت الأنظار ببذلته الحربية البيضاء، وَجسمه الفارَعْ، وجماله الواضح. وانتهى به المسير إلى مدخل مرسم «نافا بن بشارو - خريج معهد خوفو للرسم والتصوير». اجتاز الباب فرأى أخاه مكبّا على عمله، غير شاعر بما حوله، فصاح به ضاحكا:

- السلام عليك أيها الفنّان العظيم.

فوجىء نافا به، فقام واقفا، وأقبل عليه مرحّبا، وهو يقول:

- دِدْفْ! ياللحظ السعيد. كيف حالك؟ هل زرت البيت؟

تعانق الأخوان مليّا، وقال دِدْفْ، وهو يجلس إلى كرسى قدّمه إليه الفنان:

- نعم زرته، ثم أتيت لك رأسا. فأنت تعلم أن مرسمك هذا هو جنتى المختارة.

فضحك نافا، وفاض وجهه بالسرور، وقال:

ـ أنا سعيد بك يا ددفْ! وإن كنت أعجب كيف يهوى ضابط مثلك إلى هذا المَرسم الهادئ الحالم! أين هو من ميدان القتال والقلاع؟

ـ لا تعجب يا نافا. فأنا جندى حقا، ولكنك حبّبتنى فى الفن الجميل، كما حبّبنى خنى فى المعرفة والحكمة.

فقال نافا فى إعجاب:

ـ كأنك ولىّ عهد المملكة. فهم يعدّونه للعرش بتعليمه الحكمة والفن والحرب.

فتصاعد الدم إلى وجه ددِفْ، وقال مبتسما:

ـ وأنت يعدّونك لماذا، أيها الفنان الحالم الهائم؟

فضحك نافا عليا وقال:

ـ هل تصدق يا ددِفْ، أنى سأتزوج؟

ـ أنت يا نافا.. بعد ما أغضبت والدنا، وزهدت دائما فى الزواج؟

ـ أحببت يا ددِفْ. أحببت فجأة!

ـ فجأة؟!

ـ نعم كنت كطائر يحلق فى السماء، وما يشعر إلا وسهم يستقر فى قلبه، فيَهْوِى إلى الأرض.

ـ متى، وأين، وكيف، ومن؟

فأخذ نافا يقصّ عليه قصة حبه، سعيدا فرحا. وينهيها بقوله:

ـ ويشاء الحظ السعيد أن أوفّق فى حياتى الفنية أيضا. وأقبل الكثيرون على لوحاتى، وأعجبهم فنّها، فاشتروها بأثمان غالية.

واستعرض معه بعض لوحاته. ثم أشار إلى صورة معلّقة وقال له:

ـ انظر إلى هذه الصورة الصغيرة.

أدار ددْفْ وجهه إليها. فرأى صورة صغيرة تمثل فلاحة صبية على شاطىء النيل عند الغروب. جذبه جمال الصورة، فمشى إليها، ووقف مذهولا أمامها. سر نافا كثيرا لإعجاب ددْفْ بها، وقال له:

ـ صورة غنية بالألوان والظلال. انظر إلى النيل.. والأفق.. والشفق..

ـ دعنى أنظر إلى الفلاحة.

ـ انظر إلى الحقول وإلى الزرَعْ المائل..

فقال ددْفْ وكأنه لا يسمع شيئا مما يقوله نافا:

ـ ما أجمل وجهها الخمرى!

ـ الزرَعْ مائل من الرياح الآتية من الجنوب.

ـ ما أجمل العينين السوداوين .

ـ ليست الفلاحة كل شيء في الصورة . انظر إلى الشفق . .

وفرك يده سرورا ، وقال :

ـ رفضت فيها عشر قطع من الذهب .

ـ لن تباع هذه الصورة أبدا .

ـ ولماذا؟

ـ هي صورتي ، ولو دفعت لها حياتي .

فضحك نافا وقال :

ـ آه يا سنّ السابعة عشرة . أنتِ نار تلتهب . أنتِ خيال وأحلام . أنتِ عذاب!

واحمر وجه الشاب ، وقال بتضرّع :

ـ لا تفرّط في هذه الصورة يا نافا .

فقام نافا إلى الصورة ، ورفعها من مكانها ، وقدّمها إلى أخيه وهو يقول :

ـ هي لك يا دِدْفْ العزيز .

فوضعها دِدْفْ بين يديه برفق ، كأنه يمسك بقلبه ، وقال بصوته المُمتَنّ :

ـ شكرا لك يا نافا.

واستغرق يتأمل الفلاحة. وقال:

ـ كم يتفنّن الخيال؟

ـ ليست من الخيال.

فزلزل قلب الشاب، وسأل برجاء:

ـ تعنى أن صاحبتها موجودة.

ـ نعم!

ـ وهل.. هى كصورتها؟

ـ ربما فاقتها حسنا.

ـ نافا!

فابتسم الفنان، وسأله الشاب المفتون:

ـ أتعرفها؟

ـ رأيتها مرات على شاطىء النيل.

ـ أين؟

ـ شمال منف.

ـ هل تذهب دائما إلى هناك؟

ـ كانت تذهب بعد العصر، هِى وصاحبات لها، فيجلسن

ويلعبن ويختفين مع اختفاء الشمس. وكنت أتخذ مكانى متخفّيا خلف شجرة الجميز، وأنتظر حضورهن بفارغ الصبر.

ـ وهل يواظبن على الحضور؟

ـ لا أدرى. فقد انتهت متابعتى لهن بانتهائى من رسم الصورة.

ـ تُرى، هل ما تزال تذهب إلى هناك؟

ـ وما الداعى إلى تساؤلك أيها الضابط؟ هل أصابك السهم أيضا؟

فقطّب دِدْفْ جبينه، وعاد يتأمل الصورة. فقال نافا:

ـ لا تنس أنها فلاحة.

فتمتم دِدْفْ قائلا:

ـ بل ملاك.. يا للجلال!

فقال نافا ضاحكا:

ـ آه.. يا ددْفْ العزيز.. أصابنى السهم، وقادنى إلى قصر كبير تقيم فيه خطيبَتى. وأخشى أن يقودك سهمك إلى كوخ متهدّم، تقيم فيه فلاحتك الجميلة!

صفحة فارغة

١٤

وضع ددْفْ الصورة على صدره دون وعى. وذهب إلى شاطئ النيل، واسَتأجر قاربا اتجه به إلى الشمال. ولم يكن يدرى ماذا يفعل! فقد كان اليوم يحمل طابع الأحلام.

وراح القارب يشق الماء، تدفعه قوة التيار وشدة الذراعين الفتيّين. وجعل ددْفْ يرسل بناظريه إلى الشاطىء، ويبحث هنا وهناك. وفى بداية الأمر لم ير إلا حدائق قصور أغنياء منف التى تهبط إلى سطح النيل بسلالم رخامية. وسار مسافة طويلة لا يرى إلا الحقول المنبسطة حتى لمح عن بعد حديقة القصرا لفرَعْونى. وكاد ييأس، لولا أن رأى، على بعد، مجموعة من الفلاحات تجلسن على الشاطىء، تاركات سيقانهن فى الماء الجارى.

خفق قلبه خفقة سريعة، طردت اليأس طردًا والتمعت عيناه بنور الأمل البهيج واشتد ساعداه، وأسرَعْ بالقارب حتى قرب منهن. واستطاع أن يرى وجوههن. فانطلقت من فمه صيحة خافتة. فقد رأى الفلاحة صاحبة الصورة التى على قلبه،

تجلس على الشاطئ وسط صاحباتها وكان كل شيء موسومًا بروح الأحلام.

رسا القارب قريبا منهن. ووقف فيه ددْفْ بقامته الفارَعْة، وبذلته البيضاء الأنيقة، وجسمه الممشوق، وَجماله الفاتن. وجعل ينظر إلى ذات الوجه الملائكى، ويطيل النظر، دون أن تصدر عنه حركة. فتملكت الفلاحة الحيرة، وأخذت تقلّب عينيها فى وجوه صاحباتها، وهن يقلّبن أعينهن فى وجهها المشرق. وكنّ يحسبن أنه عابر وسوف يواصل سيره، فلما رأينه واقفا لا يتحرك، سحبن سيقانهن من النيل، ولبسن صنادلهن، واستنكرن وقفته.

قفز ددْفْ من القارب، وصار على بعد متر منهن، وقال للفلاحة بصَوت رقيق منخفض:

ـ طاب مساؤك، أيتها الفلاحة الجميلة.

فرمته بنظرة رافضة وفيها كبرياء. وقال له أكثر من صوت من الجالسات معها:

ـ ماذا تريد أيها الشاب. امش فى حال سبيلك.

فوجّه إليها نظرة عتاب، وقال:

ـ ألا تردّين تحيتى؟

فأدارت رأسها عنه بغضب، وصاحت به الكثيرات:

ـ سر فى سبيلك أيها الشاب.. نحن لا نكلّم من لا نعرفه.

فقال وهو يشير إلى الفلاحة الجميلة:

ـ أنا أعرفها حق المعرفة.

فردّت عليه غاضبة:

ـ أتفترى عليّ كذبا؟

فقال الشاب:

ـ أبدا وحق الآلهة.. قد عرفتك قبل الآن.

فقالت الجميلة غاضبة:

ـ كيف تزعم هذا؟ وما رأتك عيناى قبل الآن؟

وأضافت إحدى صاحباتها:

ـ ولا تحب أن تراك بعد الآن!

وقالت أخرى بلهجة مريرة:

ـ وما أقبح أن يهاجم الجنود الفتيات!

تحمّل ولم يرد. ثم قال بتوسل للتى لا تتحوّل عيناه عن وجهها:

ـ صدقينى.. رأيتك قبل أن أجىء.. واستقرت آمالى فيك.

ـ كاذب.. عديم الحياء.

حاشاى.. أن أكذب، ولكنى أحتمل كلامك القاسى بشغف إكرامًا للفم الجميل الذى ينطق به.

ـ بل أنت كاذب مدّع.

ـ قلت حاشاى أن أكذب.. وإليك الدليل.

وفى اضطراب ، دسّ يده فى صــدره ، وأخــرج الصــورة ، وواجهها بها .

نظرت الصبية إلى الصورة ، فلم تتمالك أن تصيح فى سخط وخوف . وامتلأت نفوس البنات استنكارا . وهجمت عليه واحدة منهن بغتة ، تريد أن تنتزعها منه . ولكنه رفع ذراعه بالصورة سريعا ، واحتفظ بها وهو يبتسم . فقالت له صاحبة الصورة ، بغضب شديد :

ـ ردّ إلىّ هذه الصورة .

فقال ، وعلى فمه ابتسامة حلوة :

ـ لن أفرّط فيها ما حييت .

فقالت له :

ـ أرى أنك من جنود المدرسة الحربية . ألا تعلم أن سوء أدبك هذا يعرّضك إلى أقسى العقوبات ؟

ـ إذا لم يكن القصد صادقا .

همّت بالمسير . ولكنه حاول أن يوقفها ، وقال لها مستعطفا :

ـ لا أدرى كيف أكتسب ثقتك ؟

ولمّا لم يجد نتيجة ، قال :

ـ ما أسوأ حظى !

وأخلى لها السبيل . ثم انصرف كاسفا .

صفحة فارغة

١٥

مضى العام السادس والأخير لددْفْ فى المدرسة الحربية . وأقامت المدرسة حفلتها السنوية . وفَتحت أبوابها ، تستقبل المدعوين نساء ورجالا ، من أسر المتخرجين والضباط والقواد .

وأناب الملك فرَعْون ، ولىّ العهد ليرأس الحفلة . ووصل موكب الأمير خَعُوفْ فى موعده المحدد . وكان فى صحبة الأمير شقيقته الأميرة مرى سى عنخ ، وإخوته الأمراء . وانحنى الكبراء بين يدى الأمير . وسار وعلى يمينه الأميرة ، واتخذ مجلسه فى الوسط ، وجلست إلى يمينه الأميرة ، وإلى يساره الوزراء والقادة وكبار الموظفين .

وابتدأت الحفلة ، وصدحت الموسيقى ، وظهرت فرقة الضباط المتخرجين تسير أربعة أربعة ، يتقدمها كبير المعلمين يحمل علم المدرسة . وأمام ولىّ العهد ، أدوا التحية العسكرية ، فرد التحية واقفا .

وبدأت المسابقات . وكان أولها سباق الخيل . وأعلن مذيع

الحفلة اسم الفارس الفائز «ددْفْ بن بشارو». فاستقبله الحاضرون بهتاف بلغ عنان السماء، ولَو استمع الشاب إلى أبيه، وهو يهتف «لابن بشارو» بصوت كالرَعْد، لما تمالك نفسه من الضحك.

وتلاه سباق العربات. فركب الضباط عرباتهم ثم انطلقوا يبعثون الرهبة، ويتركون دويا هائلا. ويرى المشاهدون راكبا ينطلق بعربته كالسهم، ويسبق الآخرين كالمارد. ويعلن المذيع اسم الفائز «ددْفْ بن بشارو» فيتعالى الهتاف باسمه، ويشتد التصفيق له.

ثم أعلن المنادى عن سباق القفز على الحواجز. وأقيمت مصاطب الخشب، وامتطى الضباط جيادهم. وجرت الخيل بعنف، وطارت فوق الحاجز الأول، وقفزت على الثانى. ثم خان الحظ البعض وعجزت جيادهم، وسقط آخرون، إلا فارسا قفز الحواجز كلها، وفاز فى جميعها، وأعلن المذيع اسمه «ددِفْ بن بشارو» بين التصفيق والهتاف العاصفين.

وكذلك كان شأنه فى باقى المسابقات. ففاز بها جميعا، وحقّق نصرا مبينا، جعله بطل اليوم، ونابغة المدرسة. ونال الإعجاب والتقدير من كل الحاضرين.

ثم سار فى مقدمة الفائزين، لاستلام الجوائز من ولىّ العهد. وأدى التحية العسكرية له. فوضع الأمير يده فى يده، وقال له:

ـ أهنئك أيها الضابط الباسل، أولا على تفوّقك، وثانيا على اختيارى لك ضابطا فى حرسى الخاص.

فغمر الفرح الشديد وجه الشاب، وأدى التحية للأمير، وعاد إلى مكانه منشرح الصدر سعيدا.

وبعد انتهاء توزيع الجوائز، خطب ولى العهد، ثم هتف الضباط للوطن وفرَعْون. وانتهت الحفلة، وغادر موكب الأمير، وانصرف المدعوُّون.

وكان ددْفْ فى حالة من الذهول، جعلته لا يحسّ بكل ما حوله. فَعندما بدأ ولىّ العهد يخطب، تحركت عيناه إليه، فعثرتا فى طريقهما بوجه الأميرة مرى سى عنخ. فانخلع قلبه، وكادت قوة المفاجأة، تصعقه صعقا. يا إلهى! ماذا أرى؟ إنه وجه الفلاحة التى يحمل صورتها. هل يمكن أن تكون فلاحته الجميلة هى الأميرة مرى سى عنخ؟ أمّا لو كانت هى الأميرة، فماذا ستكون العاقبة لما حدث معها. لم يتمالك من أن يضحك ضحكة ساخرة، وأخرج الصورة، وأخذ ينظر طويلا.. إليها!

صفحة فارغة

١٦

باشر ددْفْ عمله، فى قصر صاحب السمو الفرَعْونى، ولى العهد، الأمير خَعُوفْ. وبعد بضعة أيام، كان يتجوّل فى حدائق القصر المطلة على النيل، والوقت بين العصر والغروب. فرأى سفينة ملكية ترسو إلى سلم الحديقة. ولم يكن فى استقبالها أحد. فأسرَعْ يقوم بواجب استقبال الرسول الكريم. وإذا به يرى الأميرة مرى سى عنخ تمرّ به كالحلم الجميل. وسرَعْان ما غابت بين أشجار الحديقة.

ألقى بنظرة إلى الأشجار، وظلّ ملازما مكانه، يمنّى النفس برؤيتها مرة أخرى. فالزيارة غير رسمية، وإلا لجرى لها استقبال يليق بمكانها. وعلى هذا، فمُحتَمَل جدا، أن تعود إلى السفينة بمفردها. وعادت فعلا، بعد أن ودعها ولىّ العهد عند مدخل القصر. وكان ددْفْ بمكانه عند سلم الحديقة، فوقف مستعدا. ولما صارت أمامه، رَفع السيف وأدى التحية، وفجأة، توقفت الأميرة، والتفتت إليه فى كبرياء، وقالت بلهجة ساخرة:

ـ هل تعرف واجباتك أيها الضابط؟

ـ نعم، يا صاحبة السمو .

ـ هل منها أن تهاجم الفتيات؟

فاستولى الارتباك عليه. ورمته بنظرة قاسية، ثم قالت :

ـ ما قولك فيمن يختبئ خلف الشجر ويصوّر الفتيات من غير أن يعرفن؟

ثم غيّرت لهجتها، وقالت بشدة :

ـ عليك أن تعلم أنى أريد هذه الصورة .

أطاع ددْفْ، ودسّ يده فى صدره، وأخرج الصورة، وقدمها إلى الأميرة .

لم تكن تتوقع هذا، وبدت عليها الدهشة. ولكنها تمالكت نفسها سريعا، ومدّت يدها، وأخذت الصورة. وسارت إلى السفينة يحوطها الجلال والعظمة .

صفحة فارغة

١٧

دعا وليّ العهد إلى رحلة صيد بالصحراء الشرقية . وكانت الرحلة للحفاوة بضيفه ، ابن خاله ، الأمير الشاب أبوور حاكم إحدى المقاطعات . وكان فى مقدمة المدعوين الأميرة مرى سى عنخ والأمراء والأصدقاء .

ودار همس فى أروقة القصر ، أن الأمير الشاب جاء لخطبة الأميرة مرى سى عنخ .

وأشرف كبير الحجاب بنفسه على إعداد قافلة الصيد ، وتزويدها بالماء والزاد والسلاح والشباك . واختار رئيس الحرس مائة جندى لمرافقتها ، جعل على قيادتهم عشرة ضباط من بينهم دِدْفْ .

وفى الرحلة كان الأمير خَعُوفْ ولى العهد أمهر الصيادين قاطبة . كذلك أظهر الأمير أبوور مهارة فائقة أثارت الإعجاب .

استمتع الجميع بالرحلة . ومضى الأمراء يتبارون فى لهوهم العنيف ، بعد أن بدأت معركة الصيد . وانقضى الوقت ساعة بعد ساعة دون أن يحسّوا به . وكاد الصيد ينتهى فى استمتاع شامل

وسرور غامر، لولا وقوع حادث كدّر الصفو وأفزع القلوب. إذ كان الأمير خَعْوفْ يطارد غزالا بعيدا تحت سفح الجبل. وبينما كان يعدو بجواده سريعا فوق ربوة عالية، وإذا بأسد كاشر أنيابه يعترض سبيله. ولم يكن الأمير مستعداً لهذا اللقاء الخطر المفاجئ. وقبل أن يستلّ رمحه، وثب الأسد وثبة عظيمة، وضرب الجواد بيده الجبارة على وجهه. وكان يريد فارس الجواد نفسه. وسرعان ما ثقلت أقدام الجواد، وخارت قواه، وترنّح، وأوشك على السقوط. وتتابعت الحوادث. فكان الأسد ينكمش استعدادا لوثبة أشدّ من الأولى، فتمكّن الأمير من إشهار رمحه، وصوّبه نحو الأسد المتوثّب، وقذفه بقوة. في هذه اللحظة، سقط الجواد فاقد الحياة من ضربة الأسد الأولى، فأخطأ الرمح الأسد، ووقع الأمير على ظهره، وأصبح تحت رحمة الأسد الكاسر، أعزل من كل سلاح.

وفي تلك الأثناء، كان الأمراء والضباط يطلقون لجيادهم العنان ليلحقوا الأمير المهدّد. وكان ددْفْ يطير بجواده في الهواء طيرا. وقد سبق الجميع إلى الأمير. وصادف وصوله، وثوب الأسد وثبته القاضية، فوثب ددْفْ من ظهر جواده المنطلق كالسهم، شاهرا رمحه، وسقط كالشهاب النارى على الأسد الغاضب، غارسا رمحه في فمه، فانغرس فيه ونفذ منه، فاهتز الأسد، وخار، وترنّح، ثم سقط على الأرض يحتضر. ولحق الأمراء والجند، وأطلقوا سهامهم على الأسد المحتضر فقضوا عليه.

وصلت الأميرة مرى سى عنخ على ظهر جوادها. وكانت مرتاعة مذعورة. فلما رأت شقيقها واقفا سليما، نزلت عن ظهر جوادها، وأسرَعْت إليه، وعانقته، وحمدت الرب على نجاته. وأقبل الأمراء والجميع على وليّ العهد يهنئونه بالنجاة، وصلّوا جميعا للرب بتاح شكرا وامتنانا.

وكان الأمير خَعُوفْ ينظر إلى جواده القتيل بأسف ظاهر. وسار إلى جثة الأسد الذى كاد يوردُه حتْفه، ثم نظر إلى الفارس الواقف إلى جانبها كالتمثال الجميل. وسرَعْان ما تذكره. إنه الضابط الشاب الذي اختاره بنفسه ليكون بين ضباط حرسه. فكأن الآلهة اختارته لهذه الساعة العصيبة. وأحسَّ الأمير نحوه بإعجاب وامتنان. فاقترب منه. ووضع يده على كتفه، وقال:

- أيها الضابط الباسل. لقد أنقذت حياتى من الموت المؤكد. وسأجزيك عن بطولتك التى ليس لها مثيل، بما تستحقه.

وتقدّم الأمير أبوور من ددِفْ، وشدّ على يده بحرارة، وقال:

- أيها الجندى الشجاع، لقد أدَّيت للوطن والملك خدمة فوق كل تقدير.

صفحة فارغة

١٨

كانت مفاجأة سارة للضابط ددْفْ، أن يصطحبه وليّ العهد، ويستقبلهما فرَعْونُ مصر، بعد أيامَ قليلة من حادث رحلة الصيد.

وقبّل الأمير يد والده العظيم، وقال:

ـ هذا، يا مولاى، هو الضابط الشجاع ددْفْ بن بشارو. لقد أنقذ، بشجاعته الفائقة، حياتى من موت مؤكدَ.

فهنّأ الملك ددْفْ بشجاعته، وأبلغه رضاءه عنه. فقال ددْفْ بصوت متهدج:

ـ مولاى صاحب الجلالة، إنى جندى من جنود فرَعْون. فأسمى غاية لى أن أبذل حياتى فى سبيل العرش والوطن.

وهنا، قال وليّ العهد:

ـ ألتمس من مولاى الملك، الموافقة على تعيين هذا الضابط رئيسا لحرسى.

واتسعت عينا الشاب، فلم يكن يتوقع هذه المفاجأة. وكان جواب الملك أن سأله:

ـ ما عمرك أيها الضابط؟

ـ عشرون عاما يا صاحب الجلالة .

ففهم الأمير معنى سؤال الملك، وقال:

ـ الجندى الباسل يا مولاى، تعفيه شجاعته من شرط السن .

فابتسم فرَعْون وقال:

ـ لك ما تشاء يا خعوف. أنت ولىّ عهدى. ورغبتك عندى لا ترد.

فسجد ددِفْ عند أقدام العرش، فقال له الملك:

ـ أهنئك بثقة صاحب السمو الفرَعْونى، أيها القائد ددِفْ بن بشارو.

وأقسم ددِفْ يمين الإخلاص للملك. وانتهت بذلك المقابلة، وغادر ددِفَ القصر الفرَعْونى وقد أصبح قائدًا من قواد الجيش المَصرى.

١٩

وبعد بضعة أيام، دُعى ددْفْ إلى مقابلة ولىّ العهد، لأول مرة كقائد حرسه. كذلك كانَت أول مرة ينفرد فيها بالأمير، فطالع عن قرب ملامح الشدة والقسوة على وجهه. وقال الأمير باهتمام:

ـ أنت مدعو أيها القائد، مع قواد الجيش وحكام الأقاليم، للاجتماع بصاحب الجلالة الملك. وسوف يتم بحث أمر قبائل البدو دائمة السطو على قوافل التجارة والقرى البعيدة. فالاتجاه استقرّ إلى الحرب بعد التردد الطويل. وستشهد مصر أبناءها يحْتشدون، لا لبناء هرم آخر، بل لينقضّوا على بدو الصحراء، الذين يهدّدون أمن الوادى السعيد.

واستطرد يقول:

ـ إنى أثق فى بسالتك يا ددْفْ ثقة كبرى. وإنى أدَّخر لك مفاجأة سارة بعد إعلان الحرب.

وعاد ددْفْ من مقابلة الأمير سعيدا. وكان يسائل نفسه، ماذا ستكون المَفاجأة السعيدة، والأمير قد رفعه فى غمضة عين، من ضابط صغير إلى قائد عظيم؟

وجاء يوم الاجتماع الكبير . وأتى القواد والحكام من مصر العليا والسفلى . وشهد البهو الفرَعْونى رجال الدولة مجتمعين عن يمين العرش وعن يساره . فجلس الحكام صفًا ، وجلس القواد صفًا ، واتخذ الوزراء أماكنهم خلف العرش . وأعلن كبير حجّاب القصر قدوم صاحب الجلالة الملك . فوقف الجميع ، وأدى القواد التحية العسكرية . وجلس الملك ، وأذن للحاضرين بالجلوس .

واستغرق الاجتماع زمنا قليلا . ولكنه كان حاسما رهيبا . ختمه الملك بقوله :

«نحن فرَعْون مصر العليا والسفلى ، خوفو بن الرب خنوم ، حامى النيل وسيد بلاد النوبة ، نعلن الحرب على قبائل البدو ، ونأمر بهدم حصونهم ، وتأديب رجالهم ، وسبى نسائهم . وإنى آمركم أيها الحكام أن تعودوا إلى مقاطعاتكم ، ويرسل كل حاكم فرقة من حامية إقليمه» .

وقام فرَعْون ، فقام الجميع . وهتفوا باسمه بحماس عظيم .

وعاد ددْفْ فى ركاب ولى العهد . وكان الأمير مسرورا مبتهجا على غير عَادته . فالشدة والقوة هى سياسته التى يؤمن بها ويسعى دائما إليها . وتذكّر الشاب وعده له ، وها الحرب أعلنت . ولكن الأمير لم يدعه يفكر ، وقال له :

ـ وعدتك بمفاجأة سارة . فإليك بها . لقد حصلت على موافقة والدى الملك على اختيارك قائدا الجيش لهذه الحملة .

٢٠

شمل مصر، من جنوبها إلى شمالها، نشاط عظيم. وكان الجنود يُحشَدون فى كل مكان. وكانت السفن الكبيرة تشق مياه النيل، من الشمال والجنوب، تحمل الجند والأسلحة والمؤن، قاصدة منف العظيمة. وتواصلت الاستعدادات، والقائد الشاب يعطيها كل جهده وفكره.

ولكنه كان كلما خلا إلى نفسه، تحدَّث إليها:

ـ غدا سيذهب للقتال. ويذهب إليه بقلب لا يخاف الموت، ونفس لا تخشى المخاطر، وروح تتشوق إلى المغامرات والأهوال. ليته يحقق النصر لوطنه، ويدفع حياته ثمنا لهذا النصر. ولكن كيف يودع الوطن، وداعا قد لا تكون منه رجعة، دون أن يحظى منها بنظرة أخيرة؟ وهل كان حبه لها لعبا ولهوا؟ إن قلبه يشتاق لرؤية قلبها، ويتألم فى اشتياقه. فلابد من رؤيتها ومحادثتها.

ولم يعرف القائد الشاب كيف يحقق هذه الأمنية. ومرَّت أيام الاستعداد سريعة، حتى جاء اليوم الأخير الذى سيسير الجيش فى غده. ففاجأته الآلهة، وجعلت من عسره يسرا. وجاءت الأميرة

تزور شقيقها زيارة من زياراتها المفاجئة. وكان الأمير قد ذهب لتفتيش الثكنات الحربية. فخفّ القائد الشاب إليها. ولم تغب الأميرة طويلا داخل القصر. فظهرت بوجهها الفتان. وأقبل عليها الشاب بجرأة لم يستطعها إلا مرة واحدة على شاطىء النيل. وأدّى لها التحية العسكرية، ثم سار فى معيتها بمفرده، بعد أن تخلّف كبير الحجاب عند مدخل القصر.

وكانت السفينة الفرَعْونية راسية إلى سلم الحديقة. فجزع وخاف أن تذهب من بين يديه دون كلمة وداع. ولم يعطه جمودها فرصة للكلام. ورأى المسافة تقصر، والسفينة تقترب. فاشتد به الجزع. وطغت عليه موجة من اللامبالاة حلّت عقدة لسانه. فقال لها بصوت متهدّج:

ـ كم أنا سعيد يا صاحبة السمو لأنى رأيتك قبل الرحيل غدا.

فبدا عليها أنها فوجئت بقوله. وألقت إليه نظرة استغراب، وقالت:

ـ لقد وصلت أيها القائد إلى مكانة عالية. فما لى أراك تغامر بها!

فقال باستهانة:

ـ المكانة العالية يا صاحبة السمو، لا قيمة لها.. والموت أفضل.

فقالت باحتقار:

ـ أرى والدى قد اختار لجيشه قائدا يسيطر الموت على قلبه، وليس النَّصر والفوز!

فاندفع الدم إلى وجهه الجميل، وقال بإباء:

ـ إنى أعرف واجبى يا صاحبة السمو. وسأقوم به كما يجب على قائد مصرى تشرّف بثقة مولاه. وسأبذل حياتى ثمنا لهذا الواجب.

فهزت كتفيها، وقالت:

ـ الرجل الشجاع لا ينسى واجباته، ولا يخرق التقاليد.. ثم يتكلم عن الموت.

ـ هذا حق يا صاحبة السمو. ولكن ما حيلتى إذا كانت التقاليد تمسك لسانى، فلا يبوح بما يضطرم فى فؤادى. إنى ذاهب غدا. وتمنيت أن أراك قبل ذهابى. فحققت الآلهة أمنيتى. وما كان لى أن أجحد هذا العطف الإلهى، وأصمت وأجبن.

ـ يحسن بك أن تتعلم فضيلة الصمت.

ـ بعد أن أقول كلمة واحدة!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

فبدا الهيام على وجهه الجميل، وقال:

ـ أحبك يا مولاتى. لقد أحببتك حين وقع نظرى عليك.. إنها

حقيقة رهيبة. ولولا قوتها الخارقة فى نفسى، ما كنت أتشجّع للبوح بها. . عفوا يا صاحبة السمو.

ـ وتسمى هذا كله كلمة واحدة! ومع هذا ما كان أغناك عن قولها. فأنت أشعرتنى بها يوم الهجوم على شاطىء النيل.

أهاجته الذكرى، وهزّه ذكرها لـ «شاطىء النيل» فقال:

ـ ولكنى لا أملّ ترديدها وقولها كل دقيقة من حياتى يا مولاتى. فهى أعظم ما نطق به لسانى، وأجمل ما سمعت أذناى.

وكانا قد بلغا السلالم الرخامية، فتولاه الجزع، وقال:

ـ أما من كلمة وداع؟

فالتفتت إليه وقالت:

ـ استودعك الآلهة أيها القائد. سأدعو بتاح العظيم، أن يحقق على يديك النصر لوطننا المحبوب.

ثم هبطت درجات السلم إلى السفينة فى تؤدة ومهابة. وتركت ددْف ينظر إليها بعينين حزينتين. ويشهد ـ بقلب خفاق ـ السفينة وهى تبتعد عن الشاطىء رويدا رويدا، وظلت الأميرة على سطحها لا تدخل مقصورتها، فعلقت عيناه بها، حتى غابت عنه فى منعطف المياه. وعاد بخطى ثقيلة، تتجمع فى صدره ثورة جامحة. لولا أنه تعلّم فضيلة يتمسك بها، وهى ألا يخضع للانفعال أبدا، وألا يصل به الانفعال إلى أن يضلّ الصواب والتفكير السليم.

وأمضى مســاء ذلك اليوم فى بيت بشارو ليودع أهله . وحاول ما استطاع أن يظهر بمظهر الفرح والمرح الذى عهدوه فيه . واجتمعوا جميعا حول مائدة العشاء : بشارو وزايا وخنى ونافا وزوجته مانا . وتوسط المائدة القائد الشاب . ومضى بشارو يتحدث بلا انقطاع . وأحب نافا أن يختتم تلك الليلة ختاما سعيدا . فدعا زوجته مانا إلى العزف على القيثارة ، وإنشاد الأغنية الجميلة «ظفرت فى الحب والحرب» . وكانت مانا ذات صوت رخيم ، وكانت عازفة ماهرة . فملأت جو الغرفة نغما فاتنا وصوتا عذبا .

واضطرمت فى قلب الشاب نار موقدة ، لم تكو بنارها أحدا بين الحاضرين سواه . وكان نافا أكثر الجميع براءة وسذاجة .

واقترب من ددِفْ وهمس فى أذنه :

ـ أبشر خيرا أيها القائد . بالأمس ظفرت فى الحب ، وستظفر غدا فى الحرب !

فاستولى الذهول على ددِفْ وقال :

ـ ماذا تقول يا نافا؟

فابتسم الفنان ابتسامة ماكرة ، وقال :

ـ أتظن أنى نسيت صورة الفلاحة الجميلة . آه . . ما أجمل فلاحات النيل . إن الواحدة منهن . . لتتمنّى ضابطا وتحلم به . . فما بالك لو كان هذا الضابط هو ددِفْ الجميل الفاتن .

فقال له باستياء :

ـ اسكت يا نافا . . أنت لا تدرى شيئا .

وأهاجه حديث نافا ، كما أهاجه غناء مانا . وأحس برغبـ
الفرار ، لولا أنه تذكر أمه زايا ، فوجدها تديم النظر إليه . وخشـ
تقرأ صفحة قلبه بعينيها الملهمتين ، فيصيبها حزن كبير . فابتسـ
وأقبل نحوها يختال فى فرح وحبور .

صفحة فارغة

٢١

طلع نور فجر الغد.

وكان القائد ددْفْ جالسا فى خيمته، وسط معسكر الجيش، خارج أسوار منفَ، يطلع على خريطة شبه جزيرة سيناء، وسورها الكبير، والطرق الصحراوية المؤدية إليها. وكانت تسود المعسكر حركة صاخبة. فالخيل تصهل، والعجلات تصلصل، والجنود تذهب وتجيء. والجميع يلفّه نور الفجر الأزرق الهادئ.

ودخل الضابط سِنَفْر على القائد، وحياه باحترام، وقال:

- بالباب، رسولٌ من صاحب السمو الفرَعْونى ولىّ العهد، ويطلب الإذن بالدخول على سعادتكم.

- دعه يدخل.

فغاب سنفر لحظة، ثم عاد يتقدم الرسول، ثم غادر الخيمة. وكان الرسول يلبس ثياب الكهنوت الواسعة التى تغطى الجسم حتى أسفل القدمين. ويضع على رأسه قلنسوة سوداء، ويرسل

لحيته الكثة إلى منتصف صدره. فعجب ددْفْ لمرآه، إذ كان يتوقع أن يلقى وجها مألوفا من الوجوه التى يراها عادة فى قصر ولى العهد. وسمع صوتا، خيِّل إليه، رغم خفوته، أنه لا يسمعه لأول مرة. سمع هذا الصوت يقول:

ـ جئت يا صاحب السعادة فى أمر خطير. فأرجو أن تأمر بإسدال الستار على الباب، وبمنع الدخول بغير إذن.

فنظر ددْفْ إلى الرسول نظرة خاصة، وكان ينازعه التردد. ولكنه هزّ كتفيه العريضين، ونادى سنفر، وأمره بإسدال الستار على مدخل الخيمة، وعدم السماح لإنسان بالدخول. وصدع سنفر بالأمر. فنظر ددْفْ إلى الرسول وقال له:

ـ هات ما عندك.

ولما اطمأن الرسول إلى خلو الخيمة، رفع عن رأسه قلنسوته السوداء، فبدا شعر أسود غزير سقطت خصلاته على الكتفين، ورسمت الخصلات هالةً حول رأس جميل. ثم امتدت يد الرسول إلى لحيته فأزالها برشاقة، وفتح عينيه، فسطع وجه مشرق، يتلألأ بالنور فى جو الخيمة.

وخفق قلب ددْفْ فى صدره، وهتف بصوت متهدّج:

ـ مولاتى مرى سى غنخ!

خفّ إليها كالطير المذعور، وجثا عند قدميها، ولثم طرف ثوبها الفضفاض. وكانت الأميرة ترسل بناظريها إلى الأمام فى خفر

واستحياء. ثم لمست رأسه بأناملها، وهمست بصوت خافت «قم». فقام الشاب تلمع عيناه بنور الفرح البهيج، وجعل يقول:

ـ أحقا هذا يا مولاتى؟ أحقا ما أسمع؟ وما أرى؟

فنظرت إليه باستسلام، كأنها تقول له.. غُلِبْت على أمرى فجئت إليك.. فقال الشاب:

ـ إن آلهة الأفراح كلها.. تغنى فى قلبى هذه الساعة.. وأنسانى غناؤها سهاد الليالى وعذاب الشهور، وغسلت أنغامها قلبى من مرارة اليأس وظلماته.. رباه!.. من يقول إنى أنا الذى هانت عليه الحياة بالأمس؟!

فبدا على وجهها التأثر، وقالت بصوت خافت كتغريد البلابل:

ـ هل هانت عليك الحياة حقا؟

ـ نعم هانت. فلا قيمة لحياة بلا أمل. ولكننى يا مولاتى، لم أك جبانًا قط. فلبثت أؤدى واجبى، رغم العذاب والألم.

فتنهدت وقالت:

ـ وكنت أنا أجاهد نفسى، وأكافح كبريائى، وألقى منهما عذابا متواصلا.

ـ كم كنت قاسية علىّ!

ـ وكنت على نفسى أشد قسوة. منذ لقاء شاطئ النيل، وكلما

وقع نظرى عليك، قسوت على نفسى وقسوت عليك. فعلى رأسى يقع الذنب فى كل مافات.

ـ فدتك نفسى من كل شر.

فابتسمت ابتسامة حلوة، وقالت:

ـ أظن أن الوقت يقسو علينا هذه المرة.

فتنهّد آسفا، ونظر إليها بعينين مكتئبتين. فقالت تُبثّ فيه الأمل:

ـ أمامنا مستقبل طويل ومشرق بالأمل. فتمنّ الحياة كما تمنّيت الموت.

فقال بسعادة وابتهاج:

ـ لن يقدر الموت على قلبى.

فوضعت أصبعها على فمه وقالت:

ـ لا تقل هذا.

ولكنه قال بحماس جنونى:

ـ ماذا يصنع الموت بقلب جعله الحب بين الخالدين.

فقالت:

ـ سأظل بالقصر لا أبرحه، حتى أسمع الأبواق تزف بشرى النصر والعودة.

ـ فلندع الآلهة أن تقصّر فراقنا.

ـ نعم سأصلّى إلى بتاح. ولكن فى القصر لاهنا. فلم يعد فى الوقت متسع.

ووضعت القلنسوة على رأسها، ونظرت إليه بعينين يلتمع فيهما نور الحب والأمل. ولكن خيِّل إليها أن وجهه يكفهر، وصدره ينقبض، فساورها القلق، فسألته:

ـ فيم تفكّر؟

ـ الأمير أبوور.

فضحكت قائلة:

ـ هل بلغك ما تناقلته الألسن. يا عجبا!

لا يخفى شىء فى مصر، وإن كان من أسرار القصر الفرَعْونى. لقد تحدث فعلا فى الموضوع، وكان الحديث سراً ومحدودا. . فاعتذرت. . وقلت له:

إنى أفضل أن أبقى صديقته، ولاشك أنه أحس بخيبة أمل ولكنه ابتسم ابتسامته النبيلة وقال لى:

إنى أحب الصدق والحرية، وتكره نفسى أن تستذل نفسًا نبيلة.

فقال ددِفْ بفرح:

ياله من إنسان نبيل! ولكن ألا يوجد. . ؟ وانتهى الموضوع تماما.

فقال ددَفْ بفرح:

ـ ألا يوجد فى أفقنا ما يدعو إلى التشاؤم؟ أعنى . . أخشى فرَعْون !!

فخفضت عينيها خفرا ، وقالت :

ـ لن يكون أبى أول فرَعْون ، يصاهر واحدا من أفراد شعبه .

فأطربه جوابها ، وأسكره خفرها ، وحنت ضلوعه إليها حنينا موجعا ، وامتدت يده إليها ، وكانت تهم بلصق اللحية بوجهها ، وجثا أمامها ، ولثم يدها هيمانًا مفتونا ، وقالت له :

ـ استودعك الآلهة جميعا .

ثم ألصقت اللحية المستعارة بوجهها ، وضغطت على القلنسوة حتى مست حافتها حاجبيها ، فعادت إلى هيئة رسول ولىّ العهد . وقبل أن تدير ظهرها ، وضعت يدها فى صدرها ، وأخرجت الصورة الصغيرة العزيزة ، التى جعلتها الأقدار سببا فى هذا الغرام الجميل . وأعطته إياها بغير كلام . فأخذها بحنوّ وهيام ، ولثمها بفمه ، ثم دفعها فى صدره فى مكانها المعهود . وألقت عليه ابتسامة وداع . وكأنما أرادت أن تضاحكه ، فأدت له التحية العسكرية ، وسارت فى مشية الجنود إلى الخارج .

وأعاده إلى اليقظة دخول سنفر . كل شىء على استعداد . فأمر بالنفخ فى الصور إيذانا بالرحيل . وعزفت الموسيقى ، وتحركت طليعة الجيش . وركب ددْفُ عربة القيادة يتولى قيادتها سنفر . وسارت العربة فى الطليعَة . واخترق الجيش الصحراء ، يقصد السور الذى اتخذته القبائل وكرا آمنا .

٢٢

انتهت المعركة الفاصلة، وأتمّ الجيش انتصاراته الباهرة. فاستعرض القائد هذا الجيش المنتصر، وسلّم على الضباط البواسل، وهنأهم والجنود بالفوز والنجاة، وحيّا ذكرى من سقط من الشهداء.

ثم سار مع أركان حربه إلى البقعة التى دُفن فيها الشهداء، وبعدها إلى قتلى الأعداء، ثم إلى حيث يقيم الأسرى، ثم السبايا من النساء اللاتى لم يستطعن الهروب.

ووقع بصره على طائفة من السبايا تبدو عليهن مظاهر النعيم، فسأل عنهن الضابط المشرف على حراستهن، فقال:

ـ هن حريم زعماء القبائل.

وكنّ ينظرن إلى القائد بأعين جامدة، تخفى خلفها نارا مضطرمة من الحقد والكراهية، إلا واحدة منهن صاحت بالقائد باللغة المصرية السليمة:

ـ أيها القائد.. دعنى أقترب منك.. وليباركك الرب رَعْ.

فدهش ددْفْ ومن معه لطلاقة لسانها، وحسن نطقها المصرى.

وأمر القائد الضابط أن يتركها تتقدم منه. فتقدمت بخطى ثابتة، حتى قربت من الشاب، وانحنت أمامه فى احترام وإجلال. وكانت امرأة فى الخمسين من عمرها، طلعتها فيها وقار، ووجهها يحمل أثرا لحسن قديم أتى عليه الزمان والشقاء، وفى قسماتها شبَه عجيب من بنات النيل.

فقال لها ددِفْ:

ـ أراك تعرفين لغتنا أيتها السيدة.

فتأثرت السيدة، واغرورقت عيناها بالدموع، وقالت:

ـ كيف لا.. وهى لغتى التى نشأت بها؟ أنا مصرية يا مولاى.

فأحس نحوها بعطف شديد، وسألها:

ـ صحيح أنت مصرية يا سيدتى؟

ـ نعم يا مولاى، مصرية بنت مصريين.

ـ وما الذى جاء بك إلى هنا؟

ـ حظى التعس. إذ خطفنى ـ على أيام شبابى ـ هؤلاء البدو الغلاظ الأكباد، الذين نالوا جزاءهم على أيديكم الباسلة. وسامونى العذاب، حتى أنقذنى زعيمهم من شرّهم، ليبتلينى بشره. فضمنى إلى حريمه، حيث عانيت ذل الأسر والهوان عشرين عاما.

فاشتد تأثر ددِفْ، وقال للمرأة البائسة:

ـ اليوم ينتهى أسرك أيتها السيدة، أنت أختنا فى الجنس والوطن، فقرّى عينا.

فتنهدت المرأة، وأرادت أن تجثو عند قدميه، ولكنه أمسك بيدها برقة، وقال لها:

ـ هدئى من روعك يا سيدتى.. من أى البلاد أنت؟

ـ من أون يا مولاى، مقر الرب رَعْ.

ـ لا تحزنى. لقد ابتلاك الرب بشر عظيم، لحكمة يعلمها هو، ولكنه لم يتركك. ولسوف أقصُّ على مولاى الملك قصتك، وأضرَعْ إليه أن يفك رقبتك، فتعودى إلى مسقط رأسك راضية سعيدة.

وأراد أن يدخل الطمأنينة على نفسها المعذبة، فأرسلها إلى المعسكر معزّزة مكرّمة.

وعندما أتى المساء، آوى الجند إلى الخيام، يأخذون قسطا من الراحة. وجلس ددْفْ أمام مدخل خيمته يستدفىء بالنار، ويتأمل ما حوله بعينين حَالمتين. وكانت تحلّق فى خياله أطياف جميلة، لذكريات منف السعيدة وأحلامها. وبلغت به الأحلام تلك الساعة الرهيبة، حين يقف بين يدى فرَعْون، ويطلب إليه قلب أعز مخلوق إلى نفسه.. ما أجمل الحياة إذا تطورت من نصر إلى نصر، وتنقّلت من سعادة إلى سعادة!

ولكن.. ياللمسكينة! تلك المرأة البائسة التى اختطفها البدو من سعادتها، وأضاعوا شبابها، وساموها الذل عشرين عاما. لم يستطع أن ينسى فى سعادته وفوزه، بؤس تلك المرأة.

٢٣

أشرقت الشمس على منف ذات الأسوار البيضاء. وكانت الأعلام ترفرف على البيوت، والميادين تموج بجموع الشعب، والجو يضج بالأناشيد تحية لفرَعْون والجيش الظافر.

وفى الموعد، حمل النسيم أنغام موسيقا الجيش المنتصر، وبدت طلائعه، ودوى التصفيق، ولوّحت الأيدى بالأغصان، وغمرت القوم موجة من الحماس الدافق.

وكان القائد الشاب واقفا فى عربته، سعيدا فخورا، ينظر إلى جموع الشعب المتحمس، ويرد التحيات الحارة بالتلويح بسيفه العظيم.

وتقدم الجيش يسير إلى القصر الفرَعْونى. وطلع الملك والملكة إلى الشرفة المطلة على ميدان الشعب الكبير، ووقفت خلفهما الأميرات.

وعند اقتراب ددْفْ من الشرفة الملكية، جرد سيفه، ومدّ يده تحية، ولفت وجههَ إلى الملكين. فانجذبت عيناه إلى العينين الفاتنتين بين الأميرات، وتبادلت الأعين رسالة خفق لها القلبان.

ودعى القائد ددُفْ للمثول بين يدى فرَعْون. فذهب بقلب ثابت ونفس مطمئنة. ومَثل فى الحضرة الملكية مرة أخرى. وقدم له الملك الصولجان (عصا الملك) فلثمه ساجدا. ثم قدم للملك مفتاح السور الحصين لقبائل البدو، الذى اقتحمه الجيش ظافرا، وقال:

ـ مولاى صاحب الجلالة، فرَعْون مصر العليا والسفلى، سيد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية، وصاحب بلاد النوبة.

مولاى! لقد أيّدتنا الآلهة، فضمّت إلى ملككم السعيد ملكا جديدا. وأدخلت فى طاعتكم أفواجا كانوا عصاة طاغين، وأقسموا يمين الإخلاص لعرشكم العتيد.

فقال له فرَعْون:

ـ إن فرَعْون يهنئك أيها القائد الظافر على إخلاصك وبسالتك. ويرجو أن تمدّ الآلهة فى عمرك لينتفع الوطن بمواهبك.

ومدّ فرَعْون يده للشاب، فانحنى يلثمها باحترام عميق، وقلبه يدق دقا عنيفا. وسأله عن عدد الذين استشهدوا، والجرحى وأحوالهم. ثم نظر الملك إلى ددُفْ طويلا، وقال:

ـ لقد أديت لى خدمتين جليلتين. فأنقذت بالأولى حياة ولىّ عهدى. وأنقذت بالثانية أمن شعبى. فماذا تطلب؟

ربّاه! جاءت الساعة الرهيبة التى طالما منّى نفسه بها. وكان ددُفْ شجاعا، فقال:

ـ مولاى، ما فعلت فى الاثنتين إلا ما يفرضه الواجب على

الجندى. فلا أطلب ثمنا مقابلا لهما. ولكن لى أمنية، أتقدم بها، طامعا فى رحمة مولاى.

فقال الملك:

ـ وما هى أمنيتك أيها القائد؟

فقال ددِفْ:

ـ إن الآلهة يا مولاى ـ لحكمة تعلمها ـ ارتفعت بقلبى إلى سماوات مولاى الملك، فتعلّق بأقدام مولاتى الأميرة مرى سى عنخ.

فنظر إليه فرَعْون نظرة غريبة، وسأله:

ـ لكن، ماذا صنعت الآلهة بقلب الأميرة؟

فارتبك ددِفْ، وخيّم عليه صمت ثقيل. فابتسم فرَعْون وفهم.

وكان فرَعْون راضيا. وكأنما أراد أن يلهو قليلا، فأرسل فى طلب الأميرة مرى سى عنخ. ولبّت الأميرة نداء والدها. ولما رأت الماثل بين يديه، خفق قلبها، وتولاّها الحياء والارتباك. فنظر إليها فرَعْون بحنان. وقال بلهجة رقيقة، لم تخل من السخرية:

ـ أيتها الأميرة. يزعم هذا القائد أنه غزا حصنين: سـ سيناء، وقلبك!

فقال ددِفْ بتوسل:

ـ مولاى...!

وأعياه الكلام فسكت مرتبكا. ورأى فرَعْون قائده تخونه شجاعته. ورأى ابنته يتملكها الحياء والارتباك، فمال قلبه إليها، وناداها إلى جانبه، ثم نادى ددْفْ. فاقترب الشاب فى تهيّب شديد. ووضع الملك يد الأميرةَ على يده، وقال بصوته الجليل:

ـ أبارككما زوجين سعيدين.. باسم الآلهة جميعا.

صفحة فارغة

٢٤

على أثر انتهاء المقابلة الفرَعْونية السعيدة، استقبل ددْفْ فترة من الزمن، مقدارها اثنتا عشرة ساعة، توالت فيها الحوادث الجسام الغريبة، التى تزلزل النفوس وتحطّم العقول.

خرج ددْفْ من الحضرة الفرَعْونية، فطلب مقابلة الوزير خعمين وعرض عليه موضوع المرأة المصرية. فأخلى الوزير سبيلها، وأحضرها إلى القائد. فقال لها ددْفْ:

- أهنئك يا سيدتى. رُدَّت إليك حريتك. ولأن الوقت متأخر، فستنزلين ضيفة علىّ إلى الغد.

فأمسكت بيده، ولثمتها بامتنان عظيم. وانحدر دمعها على خديها، واصطحبها معه إلى عربته.

وكان ينتظره الضابط سنفر، فأخبره أن ولىّ العهد ينتظره حالا فى قصره. فذهب إليه، وقال له الأمير:

- إنى أحتاج إلى إخلاصك أيها القائد. فنفّذ ما تؤمر به، ولا تدع للتردد سبيلا إلى قلبك.

أيها القائد. لا تسرّح جيشك، بل ابقه معسكرا خارج أسوار منف. وانتظر أوامرى عند الفجر. ونفّذها دون تردد ودون نقاش.

فانحنى ددْفْ، وغادر الحجرة متحيِّرا من أمره. وعاد قلقا إلى العربة التى بهَا السيدة. وانطلقت العربة إلى بيت بشارو. ووصلت العربة إلى البيت. فأدخل السيدة حجرة الضيوف. وصعد، فتلقته أمه زايا بذراعين مفتوحتين، وانهالت عليه بالقبل، وضمته إلى صدرها بشدّة، ولم تتركه إلا عندما انتزعه بشارو وهو يقول:

ـ أهلا بالابن الظافر، والقائد الباسل.

وقبّله فى خدّه وجبهته. ثم عانق ددْفْ أخويه خنى ونافا، وسلم على زوجة الأخير مانا، وكانتَ تحمل رضيعا، سمَّوه على اسمه.. ددْفْ الصغير. فحمله ددْفْ بين ذراعيه، وقبّل شفتيه الرقيقتَين. ووجد الفرصة سَانحة لإعلان خطبته السعيدة، فقال لنافا:

ـ لن تكون أبا وحدك يا نافا.

فانتبه الجميع، وصاح نافا بفرح:

ـ صحيح اخترت شريكتك أيها القائد؟

فأحنى ددْفْ رأسه قائلا:

ـ نعم.

فنظرت أمه إليه بعينين تألق فيهما الفرح، وصاحت تسأله:

ـ صحيح يا ددِفْ؟ ومن هى؟

فقال الشاب بهدوء وفخار:

ـ صاحبة السمو مرى سى عنخ.

فصاح الجميع: مرى سى عنخ.. ابنة فرَعْون؟

وملكت الجميع دهشة عظيمة. واهتزت قلوبهم بسعادة طاغية. وقصّ عليهم ددِفْ قصته. وذكر نعمة فرَعْون عليه.

وتذكّر ددِفْ السيدة التى تركها فى حجرة الضيوف. فقام من فوره، وذكرَ لهم بسرَعْة قصتها، وقال لأمه:

ـ أرجو أن تكرميها يا أمى، إلى أن تغادر بيتنا.

فنزلت أمه معه للترحيب بها. ودخلا إلى حجرة الضيوف معا، وأمه زايا تقول:

ـ أهلا بك سيدتى.. لقد حللت فى بيتك..

ونهضت السيدة من جلستها، وأحنت قامتها، ثم مدّت يدها إلى مضيفتها زايا. فالتقت عينا المرأتين لأول مرة. وبسرَعْة البرق نسيتا تبادل التحية، ونظرت كل منهما إلى الأخرى بغرابة، واتسعت عينا المرأة الغريبة، وصاحت فى دهشة جنونية: زايا..!

فتولّى الذعر زايا، وأخذت تنظر إليها بذهول.

وأخذ ددْفْ يقلّب وجهه بينهما فى حيرة، ويعجب للمرأة التى عرفت أمه، مع أنها قضت عشرين عاما فى منفاها. وسألها دهشا:

ـ كيف عرفت أمى يا سيدتى؟

ولكن السيدة لم تنتبه إليه. ولعلها لم تسمعه. فانتباهها كان مركّزا فى زايا. وقد ضاقت بسكوتها وعدم ردها، فصاحت بها:

ـ زايا!.. زايا.. ألست زايا.. مالك لا تتكلمين؟ تكلمى.. أيتها الخائنة.. تكلمى.. وقولى ماذا فعلت بابنى! أين ابنى أيتها المرأة؟

ولم تتكلّم زايا، ولا تحوّلت عيناها عن المرأة الغاضبة. ولكن أعياها الاضطراب، ومزّقها الخوف، فجعلت ترتجف واصفرّ وجهها. فأمسك ددْفْ بيدها الباردة، وأجلسها على أقرب مقعد. ثم تحوّل إلى المرأة فى غضب، وقال لها بجفاء:

ـ كيف تأتيك الجرأة، وتوجهين مثل هذا الكلام إلى أمى، وأنا أكرمتك وأنقذتك من عذاب الأسر؟

وكانت المرأة تلهث بشدة، وأرادت أن تتكلّم، فما استطاعت إلا أن تشير إلى أمه، وكأنما تقول له.. سلها هى!

فانحنى الشاب إلى أمه بحنو، يسألها برقة:

ـ أمى.. هل تعرفين هذه السيدة؟

فلم تقل زايا شيئا. ولم تطق المرأة سكوتها. وعاودها غضبها وقالت:

ـ سلها.. هل تعرف ردَه ديديتْ زوجة رَعْ؟ سلها.. هل تذكر المرأة التى هربت منها، حاملَة طفلها الصغير، من عشرين عاما؟ تكلمى يا زايا.. قولى له كيف خطفت ابنى الرضيع، وتركتنى فى الصحراء، وأنا والدة فى نفس اليوم، حتى عثر بى البدو الوحوش، وأخذونى أسيرة، وساموني سوء العذاب والأسر عشرين عاما. تكلمى يا زايا.. وقولى ماذا فعلت بطفلى.. تكلمى..

فاشتدت الحيرة بدِذْفْ. وهمس فى أذن أمه متألّما:

ـ أمى.. سامحينى. أنا الذى أحدثت لك هذا العذاب. أنا الذى جئت بهذه المرأة التى أفقدها الأسر عقلها. سامحينى يا أمى. سأطرد هذه المرأة.

فأمسكت بيده تمنعه. فسألها بتوسل:

ـ ولماذا لا تتكلّمين يا أمى؟ هل تعرفين هذه المرأة؟

فقالت زايا فى أنين مؤلم:

ـ لا فائدة.. تحطمت حياتى.

ـ فدتك نفسى يا أمى. لا تقولى هذا.

ـ حياتى تنهار دفعة واحدة.

ـ أمى . . أنا بجانبك . . أدفع عنك كل سوء .

وتحوّل غاضبا إلى المرأة . . ولكن هذه لم تَلِنْ . وظلّت تسأل زايا :

ـ قولى لى أين ابنى . . أين ابنى؟

وبهتت زايا ، ثم وقفت بحالة عصبية ، وصاحت بالمرأة :

ـ أنا لم أكن غادرة يا ردَه ديديتْ . لقد سهرت عليك ذلك اليوم العصيب . ولكن البدو هَاجمَونا . فلم يكن أمامى إلا الهرب . إذ خفْتُ على طفلك من أذاهم . فحملته على ذراعى ، وجريت به كالمجنونة . ثم عنيت به ، وأعطيته حياتى . ونفعه حبى . فنشأ رجلا تفخر به الأم . وها هو ذا يقف أمامك . فهل رأيت شابًا مثله؟

تحولت ردَه ديديتْ إلى ابنها ، وأرادت أن تتكلم . فلم يطاوعها لسانها . ولَم تستَطع إلا أن تفتح ذراعيها ، وترتمى عليه ، تتعلق بعنقه ، وشفتاها ترتعشان «ابنى . ابنى» .

وكان الشاب ذاهلا ، كأنه يرى حلما عجيبا . ينظر تارة إلى زايا بوجهها الذى أصبح مثل وجوه الموتى ، وينظر تارة أخرى إلى المرأة المتعلقة به ، والتى تضمه إليها بصدرها الذى يضطرب بشدة . ورأت زايا استسلامه ، وشاهدت فى عينيه نظرة حنو وعطف ، فتأوهت بائسة ، وأدارت ظهرها ، وفرّت من الحجرة كالدجاجة المذبوحة .

أراد ددف أن يتحرك، ولكن ازداد تعلّق المرأة به، وتوسلت إليه قائلة:

- ابني.. ابني.. هل تترك أمك؟

تجمّد الشاب في مكانه. وألقى على وجهها نظرة طويلة. فخفق قلبه، وفاضت نفسه حنانا، ومالت رأسه نحوها بغير شعور، حتى ضغطت شفتاه على خدّها.

وتنهدت المرأة بارتياح، واغرورقت عيناها بالدموع، ثم انتحبت باكية. فأخذ يهدئ من روعها، وأجلسها وجلس إلى جانبها. فنظرت إليه، وقالت:

- قل لي.. أمي.

فقال لها بصوت خافت: أمي.

ثم قال بحيرة:

- ولكني لا أكاد أفهم شيئا.

فقالت له: ستعلم كل شيء يا بني...

قالت ذلك ثم سردت عليه قصتها الطويلة. وحدّثته عن ولادته، وما أحاطها من التنبؤات الخطيرة، وما أعقبها من الحوادث الجسيمة، إلى هذه اللحظة السعيدة، التي رُدّت فيها روحُها، بعد أن رأته حيًا سعيدًا جليلا.

صفحة فارغة

٢٥

ساقت الأقدار بشارو إلى سماع قصة ردَه ديديتْ عن غير قصد. فقد أراد أن يرحب بها بنفسه، مبالغة فى إكرامها. ونزل إليها، فصادف أن وصل، لحظة خروج زايا زوجته تجرى كالمجنونة. فأخذه العجب، واستولت عليه الحيرة، واقترب من باب الحجرة، فسمع صوت ردَه ديديتْ وهى تتحدث فى حالة عصبية. واستمع - كما استمع ددِفْ - إلى قصتها من بدايتها إلى نهايتها.

فانسحب من مكانه، وصعد إلى حجرته، وهو لا يدرى ماذا يفعل. أضناه التفكير، وهو يروح ويجىء، مضطرب النفس، مشتت البال، مهتاج الخاطر، حتى أخذ يحدث نفسه بصوت مسموع:

- بشارو أيها الشيخ البائس.. الآلهة تمتحنك بمحنة.. وأى محنة!

ددفْ الجميل العزيز، الذى احتضنته وهو طفل رضيع، ورَعَيته

وربّيته أحسن تربية، ويسّرت له سبل النجاح حتى وصل إلى هذه المكانة . . وأعطيته قلب الأب وعطفه . . وتقبّلت منه محبة الابن وبرّه . . ددْفْ هذا، عدو لفرَعْون، سينهى عرشه، ويسلب حق وليّ عهدهَ .

كيف يكون هذا؟ كيف يصدق هذا؟

وتزداد حالة الرجلِ سوءا . . ويمضى يتحدث فى حزن وألم :

ـ ددْفْ أيها العزيز . . لتكن ابن العامل كاردا أو ابن كاهن رَعْ العظيَم . . فإنى أحبك . . حبى لِخنىِ ونافا . . وأنت لم تعرف أبا سواى .

ثم يمضى :

ـ وبشارو . . الذى لم يؤذ إنسانا فى حياته . . هل تكون أنت يا ددْفْ العزيز أول ضحية تمتد إليها يده بالأذى؟

ويشتد الكرب بالرجل، ويتمزق قلبه، ويكاد ينفجر عقله، فيصيح :

ـ لماذا كل هذا العذاب؟ لماذا لا تطبق شفتيك، وكأنك لم تسمع شيئا .

وما يلبث الرجل أن ينتفض، وتنبعث ثورة من داخله ، فينقلب على نفسه، ويصرخ :

ـ لا . . إن قلبى لا يستريح . . إنه قلب بشارو مفتش الأهرام

وخادم الملك . . بشارو الذى يعبد الواجب عبادة . . كيف يسكت على هذه الحقائق الخطيرة . . وهو خادم فرَعْون الأمين؟!

ويسقط إعياء . . ويشتد التمزق فى قلبه وعقله :

«أيهما أولى . بالاتباع . . الواجب أم تجنب الأذى»؟

ثم يغادر بشارو حجرته بخطوات ثقيلة . ويهبط إلى حديقة البيت . ويمر فى طريقه بحجرة الضيوف ، ويرى ددْفْ ، فى موقفه . وينظر الشاب إلى ثياب أبيه الرسمية نظرة غريبةً ، ويسأل بصوت ضعيف :

- إلى أين أنت ذاهب الآن يا . . أبتى؟

- إلى واجب لا يؤجل يا بنى .

ثم يركب عربته ، ويقول للسائق :

- إلى القصر الفرَعْونى .

وانطلقت العربة فى طريقها ، وقال بشارو لنفسه وهو يتنهد آسفا محزونا :

- عرفت الواجب بمشقته ولذته . . وها أنا أتجرَعْه مرّاً لا لذة فيه ، كالسم الزعَّاف .

٢٦

قصّت ردَه ديديتْ قصتها الحزينة، وددْفْ جالس إلى جانبها يستمع إلىَ صَوتَها المتهدج، ويديم النظرَ إلى عينيها الدامعتين الحبيبتين، وقلبه يكاد يتمزق من الألم والحنان والإشفاق. وحين انتهت من سرد مأساتها، سألت ابنها:

ـ من كاهن رَعْ يا بنى؟

ـ شودا رَعْ.

ـ يا أسفا.. قُضِى على أبيك بلا شك.

ـ أنا فى ذهول يا أمى.. بالأمس كنت ددْفْ بن بشارو. واليو أنا شخص جديد، يحفل ماضيه بالفواجَع. وُلدْت من أب قت وأم بائسة، عانت ذل الأسر عشرين عاما! ياللعجَب. كان مول شؤما، فمعذرة يا أمى.

ـ لا تحمّل نفسك الطاهرة وزر الشيطان الرجيم، يا بنى. و فى الخلاص. فقلبى غير مطمئن.

ـ ماذا تعنين يا أمى؟

ـ لا يزال الخطر يحيط بنا يا بنى .

ـ يا للعجب! أيكون ددْفْ عدوا لفرَعْون؟ ويكون فرَعْون الذى يهبنى كل يوم من نعَمه وأفْضَاله، هو الذى قتل أبى وعذّب أمى؟

ـ لن يتوقف العجب أبدا فى الدنيا يا بنىّ. فإلى الخلاص. لا أريد أن أفقدك، وقدوجدتك بعد غياب السنين.

ـ إلى أين يا أمى؟

ـ بلاد الرب واسعة.

ـ لا تخافى يا أمى، سوف يشفع لى عند الملك إخلاصى وخدماتى للعرش.

ـ لن يشفع لك شىء، إذا علم أنك أنت الذى خلقَتْه الأقدارُ ليرثَ عرشَه.

ـ أرثُ عرشَه؟ يا لها من نبوءة زائفة.

ـ أضرَعْ إليك يا بنىّ، أن تطيعنى ليطمئن قلبى.

فأخذها بين يديه، وضغط عليها بحنو، وقال:

ـ عشت عشرين عاما لا يعلم أحد بسرى. ولا أنا نفسى. فالنسيان طواه. ولن يُبْعَث مرة أخرى.

ـ لا أدرى يا بنى.. لماذا أنا خائفة..

وقبل أن تكمل الأم كلامها، جاء الضابط سنفر يطلب لقاء ددْفْ فى الحال. فخرج إليه. وبدون تحية أو سلام، قال سنفر بسرَعْةَ:

ـ سيدى القائد . . لقد أطلعتنى المصادفات على حقائق خطيرة، تنذر بشر مستطير .

فاستوضحه القائد، فقال :

ـ كنت واقفا فى المخزن، تحت فتحة الحائط المطلة على الحديقة، ووصل إلى مسمعى صوت رئيس حجّاب ولىّ العهد . وكان يحادث شخصا غريبا همسا . فلم أتبيّن حديثه . ولكنى سمعت جيدا، فى ختام حديثه، دعاء للأمير خَعُوفْ، الذى سيصبح فرَعْون مصر عند الفجر!

فانتفض جسمى هولا ورَعْبا . واعتقدت أن جلالة الملك انتقل إلى جوار الإله أوزوريس . فأسرَعْت إلى ثكنات الجند، فوجدت الضباط يتسامرون كعادتهم . فظننت أن الخبر المشئوم لم يصلهم . فتوجهت بعربتى إلى القصر الفرَعْونى، فوجدت القصر هادئا، وأنواره تتلألأ، والحراس يروحون ويجيئون فى هدوء واطمئنان . وتأكدت أن رب القصر يتمتع بالحياة والصحة . فساورتنى الشكوك . فجئت على عجل إليك .

ـ وما الذى تشك فيه؟

صمت سنفر، وقفز إلى ذهن ددِفْ أمر الأمير خَعُوفْ إليه، بعدم تسريح الجيش وانتظار أوامر منه عند الفجر وتنفيذها بلا نقاش . وعلى الفور، التقت وساوس ددِفْ بوساوس سنفر، وقال ددِفْ :

ـ أخشى أن يكون الملك فى خطر .

ـ فما العمل يا سيدى القائد؟

ـ العمل الحكيم ، أن أختار بضع عشرات من الضباط ، الذين أثق فى شجاعتهم . وستكون من بينهم يا سنفر . ثم نقصد متخفّين إلى وادى الموت ، ونسبق ونقيم كمينا هناك لأى خيانة .

ولم يضع ددْفْ وقتا . ولكنه ، وبالرغم مما هو فيه من أمر خطير ، لم يستطع أن ينسى أمَّه . فصعد بها إلى جناح نافا ، وعهد بها إلى زوجته مانا . وعاد إلى سنفر ، وركب معه عربته إلى معسكر الجند خارج أسوار منف .

٢٧

طلع الفجر، فلبَّت الحياة مرة أخرى فى هضبة الأهرام المقدسة. وفُتِح باب الهرم، وخرج منه شبحان، وكان كل منهما يتلفّح بدثار سميك، أشبه بعباءة الكهنة. قال أقصر الرجلين:

ـ أنت، يا مولاى، تجهد ذاتك العلية إجهادا قاسيا.

فقال الملك:

ـ بل يجب أن أضاعف مجهودى ياخعمين. فما تبقّى من العمر إلاّ أقصره.

وصعد الملك إلى العربة الملكية، وركب بعده الوزير، وقبض على اللجام، وسارت الجياد حتى قطعت أرض الهضبة، واجتاز حدودها إلى وادى الموت، الذى يؤدى إلى أبواب منف. وكان الظلمة ما تزال حالكة، والسماء ملأى بالنجوم.

وفجأة، صهل أحد الجوادين بشدّة، وقفز عاليا، ثم سقط ع الأرض، فتوقفت العربة عن المسير. وهمّ الوزير بالنزول لير ما أصاب الجواد. ولكنه قبل أن يتحرك، صرخ متألّما، وصاح:

ـ الحذار يا مولاى . لقد أصِبْت .

فأدرك فرَعْون أنّ شخصا أصاب الحصان ثم الوزير . وظنه واحدا من قطّاع الطرق ، فصاح بصوت شديد :

ـ سلّم نفسك أيها الجبان . . أنا فرَعْون .

ولكنه رأى شبحا قادما من بعيد كالسهم ، وهو يصيح :

ـ اختبىء يا مولاى خلف سور العربة .

ثم رآه يقف فى طريق شبح آخر آت من الجهة الأخرى . واشتبك الاثنان فى قتال عنيف . وتبادلا طعنات قاتلة بسيفيهما ، ثم صرخ أحدهما وسقط على الأرض قتيلا . تُرى من الذى سقط : العدو أم الصديق . ولم تطل حيرة الملك ، وسمع صوت المنقذ يقول :

ـ هل مولاى بخير؟

فأجابه :

ـ نعم أيها الشجاع . ولكن وزيرى أصيب .

وسمع الملك صلصلة سلاح وراء العربة . فالتفت بسرَعْة فرأى فريقين من الجنود يشتبكان فى قتال عنيف . ورأى الشبح الشجاع ينضم إلى فريق ، ويحارب معه ضد الآخر . فوقف الملك الأعزل يشاهد المعركة ، وهو كاظم غيظه .

ورجحت كفة رجال الملك ، وتساقط أعداؤهم . وألقت الرَعْب فى قلوبهم ، كوكبة من الفرسان تحمل المشاعل ، وتهتف باسم

الملك. فزلزلوا زلزالا شديدا، وأمعن رجال الملك فيهم قتلا، ولم يبقوا منهم على أحد.

وأحاطت الفرسان بعربة الملك. وأضاءت مشاعلهم الوادى. فظهرت جثث القتلى. وبدت وجوه الرجال الذين دافعوا عن الملك، وقد سالت منهم الدماء الزكية.

وتقدم رئيس الفرسان من عربة الملك، وقال وهو يجثو راكعا:

ـ كيف حال مولانا الملك؟

فنزل فرَعْون على رجليه وقال:

ـ فرَعْون بخير، بفضل الأرباب، وشجاعة هؤلاء الرجال. وكيف أنت يا خعمين؟

ـ بخير يا مولاى.. إصابتى فى ساعدى وليست خطرة. فلنصلّ جميعا شكرا لبتاح الذى أنقذ حياة الملك.

ونظر الملك فيما حوله، فرأى القائد ددِفْ، فقال له:

ـ أنت هنا أيها القائد ددِفْ؟ كأنك حريص على أن تدين الأسرة الفرَعْونية جميعها.

فانحنى الشاب فى احترام عظيم، وقال:

ـ حياتنا جميعا فداء لمولاى.

فسأل الملك:

ـ ولكن كيف حدث هذا؟ أكاد ألمح خيانة فى الظلام، قضى عليها إخلاصكم وشجاعتكم. دعونا نتعرف وجوه القتلى أولا . . ونبدأ بالذى سدّد إلينا سهما طائشا.

وسار فى اتجاه العربة، وددُفْ وسنفر ورئيس الفرسان يسيرون بين يديه بالمشاعل. فتعثروا بالجثة على بعد قريب. وكان صاحبها منبطحا على وجهه، والسهم القاتل فى جنبه الأيسر، ويئن أنينا أليما. فاضطرب الملك لسماع أنينه، وسارَعْ إليه وأماله على ظهره، وألقى نظرة قلقة، وصرخ لما تبيّن وجهه:

ـ خَعُوفْ . . ابنى!!

ونسى فرَعْون جلاله، ونظر فيمن حوله، كأنه يستغيث بهم. وأمعن النظر ثانية فى وجهه، وقال بحزن وفزع:

ـ أنت الذى حاولت الفتك بى؟

ولكن الأمير كان يعانى النزع الأخير، ويتيه فى غيبوية الاحتضار. فلم ينتبه إلى العيون الناظرة إليه، وجعل يئن أنينا موجعا، وصدره يعلو وينخفض بشدّة.

وكان فرَعْون ينحنى على ابنه المحتضر، وينظر إليه بعينين جامدتين. وكانت نفسه مضطربة، تعترك فيها العواطف المتناقضة. وظل يديم النظر إلى وجه ابنه المعذّب الذىَ ذهب عنه الجلال، وسكتت حركة جسمه إلى الأبد.

بعد زمن ليس بالقصير ، استعاد الملك ثباته ، واعتدلت قامته ، والتفت إلى ددِفْ ، وسأله بصوت غريب :

ـ أخبرنى أيها القائد بما تعلم من تفاصيل هذه المأساة .

وأخبر ددِفْ مولاه بصوت متهدج حزين ، بما أبلغه به الضابط سنفر ، وبالشكوك التى وسوست فى صدريهما ، والكمين الذى دبَّراه لإنقاذ مولاهما .

صفحة فارغة

٢٨

عاد الملك وصحبه إلى القصر الفرَعْونى. وأحسّ بضعف وإرهاق، فآوى إلى مخدعه، واستلقى على فراشه. وانتشر الخبر الأسيف فى رحاب القصر، فاضطربت القلوب، وزلزلت له الملكة، فلحقت بزوجها، فوجدته نائما أو كالنائم. فلمست بأناملها جبينه، ووجدته ساخنا، فهمست بصوت خافت:

ـ مولاى.

وانتبه الملك إلى صوتها، وفتح عينيه فى هياج شديد، وجلس فى فراشه بعنف، ونظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر، وقال بصوت جنونى لم تسمعه من قبل:

ـ أتبكين القاتل الأثيم؟

فقالت بذلة:

ـ بل أبكى حظى التعس يا مولاى.

فصاح بها بغضب:

ـ ولدت لى مجرما . فرأت الحكمة الإلهية أن توقعه فى هلاكه . فالعرش لم يُخلق، ليجلس عليه المجرمون .

ـ الرحمة يا مولاى ، رحمة بقلبى وقلبك .

فهزَّ رأسه هزَّات جنونية وقال :

ـ تترحمين عليه؟

ـ يحق لنا أن نبكيه يا مولاى . ألم يخسر الدنيا والأبدية؟

فأمسك الملك رأسه ، وقال بذهول :

ـ ربَّاه . . ما هذا الجنون الذى يدور فى رأسى؟ ما هذه الضربات التى تتوالى على رأس فرَعْون؟ كيف يستطيع هذا الرأس ، أن يحمل تاج المصريين بعد الآن؟ إنى أحس بالنهاية . فأتونى بأبنائى وبناتى ، وأصدقائى جميعا . . ونادوا خعمين ومِرْئيبْ وأُرْبوُ ودِذْفْ .

ولبى الجميع النداء ، وحضروا سراعا واجمين صامتين . ودخلوا مخدع الملك ، ووقفوا صفّين حول فراشه . وكان الملك ما يزال مهتاجا عنيفا ، ولمح طبيبه كارى ، فنظر إليه بعنف ، وقال له :

ـ لماذا أتيت أيها الطبيب ولم أطلبك .

جزعت النفوس من هياج الملك واضطراب أعصابه . أما الطبيب كارى ، فقد ابتسم برقة وقال :

ـ مولاى يَحتاج لجرَعْة .

وقاطعه الملك صائحا:

ـ دع مولاك وابعد عن وجهه.

فتقدم خعمين من فراش مولاه، وقال:

ـ هدئ روعك يا مولاى. هل يريد مولاى أن أحضر له كأسا من الماء؟

وخرج الوزير من الحجرة، قبل أن يأذن الملك له. وأعطاه الطبيب كارى كأسا من الماء مذابًا فيه دواء مسكن. فحمله الوزير إلى مولاه. وتقبّله الملك من يد وزيره، وشربه حتى الثمالة. وجاء أثره سريعا. فهدأت حركات الملك، وعاودت عينيه نظراتهما المألوفة، ورُدَّ إلى وجهه لونه الطبيعى. ولكن بدا عليه هزالٌ وضعفٌ شديدان.

وتنهّد الملك تنهدا عميقا، ونظر إلى الجمع الملتفّ بفراشه، وقال:

ـ أيها السادة: كنت حاكما جبارا، ولكنى لم أغفل لحظة فى حياتى عن الخير والإصلاح. وأردت ألا ينتهى انتفاع العباد بى بانتهاء حياتى، فكتبت رسالة مطوّلة فى الطب والحكمة، سيدوم الانتفاع بها. وامتد العمر بى كما ترون. وأرادت الآلهة أن تبتلينى ببلاء شديد، لحكمة أجهلها. واختارت ابنى وسيلة لها. فتعجّل ولاية العرش، وضاق بأن يبقى وليا للعهد وقد بلغ الأربعين، ورأى فى صحتى وحياتى حائلا دون رغبته. فانقلب عدوًا لى،

وتربّص فى الظلام يريد اغتيالى. ولكن كُتبت لى النجاة. ودفع الابن التعس ثمنًا لهذه الساعات القليلة التى امتدّها عمرى.

فقال الجميع برجاء:

ـ أطال الله بقاء الملك.

فرفع الملك يده، وساد السكوت، وقال:

ـ أيها السادة.. حلت النهاية، ودعوتكم لتسمعوا وصيتى الأخيرة.

ثم التفت إلى أبنائه يتفرسهم واحدا واحدا، ثم قال:

ـ أراكم تكتمون قلقا خفيّا. فقد مات ولى العهد، والملك يحتضر، وكلكم يطمع فى العرش، ويرغب فيه.

فقال الأمير رَعْباوف، وكان أكبر الأمراء سنا:

ـ أبتى ومولاى. ما تشاؤه هو الإرادة المقدسة، التى نلتزم بطاعتها.

فابتسم الملك ابتسامة حزينة، وقال:

ـ أحسنت القول يا رَعْباوف. والحق أقول لكم.. فى هذه الساعة الرهيبة، أجد من نفسى القوة العظيمة، لأسمو فوق العواطف البشرية وأحسّ بأن أبوّتى للناس فوق أبوّتى للأبناء.

وعاد يتفرّس وجوه أبنائه، واستطرد:

ـ يظهر أن كلامى لا يلقى منكم الإعجاب. والحق، أنا لا أنكر

أبوّتى لكم، ولكننى أجد من هو أحق بالعرش منكم. هو شاب علت به همّته إلى القيادة قبل الأوان، وحققت شجاعته نصرا عزيزا للوطن، وأنقذت بطولته حياة الملك من الخيانة. ولا تقولوا كيف يتولّى العرش من لا يجرى فى عروقه دم الفراعين. فهو زوج الأميرة مرى سى عنخ، التى يجرى فى عروقها دم الملك والملكة معا.

فبدت الدهشة على وجه ددْفْ، وتبادل ومرى سى عنخ نظرات الدهشة. وفوجىء الأمراء ورجال الدولة مفاجأة ألجمت ألسنتهم.

وكان الأمير رَعْباوف أول من خاطر بتمزيق هذا السكون، فقال:

- مولاى، إنقاذ حياة الملك واجب على كل إنسان. فكيف يكون جزاؤه العرش؟

فقال الملك بلهجة صارمة:

- أراك تشعل نار العصيان، وكنت منذ حين تتغنّى بأناشيد الطاعة. أيها الأبناء، أنتم أمراء المملكة، وسيكون لددْفْ العرش.

هذه وصية فرَعْون الأخيرة.

وساد صمت رهيب، لم يجرؤ أحد على تعكيره، حتى د- رئيس الحجّاب وسجد للملك، ثم قال:

ـ مولاى، مفتش الأهرام بشارو يرجو أن تسمحوا له بالمثول بين يديكم.

فقال الملك:

ـ دعه يدخل. فهو منذ الآن، من آل بيتى.

ودخل بشارو، بقامته القصيرة، وجسمه المتهدّل، وسجد بين يدى فرَعْون، ثم أذن له الملك بالكلام. فقال:

ـ مولاى، أردت المثول بين يدى جلالتكم ليلة أمس لأمر مهم، ولكن أتى مجيئى بعد ذهاب مولاى إلى الهرم. فاضطررت للانتظار على جزع حتى الصباح.

فسأل فرَعْون:

ـ وماذا وراءك يا أبا ددْفْ الباسل؟

فقال الرجل بصوت أشد خفوتا، وهو ينظر إلى الأرض:

ـ مولاى! لست أبًا لددْفْ، ولا ددْفْ ابنًا لى.

فعجب فرَعْون لإنكار بشارو، وقال بتهكم:

ـ بالأمس تنكَّر ابن لأبيه، واليوم يتنكّر أب لابنه!

فقال بشارو بتألم وحزن:

ـ مولاى، الآلهة جميعا تعلم أنى أحب هذا الشاب محبة الأب لابنه. ولكن إخلاصى للعرش أكبر.

فزاد عجب الملك، وبدا الاهتمام على وجوه الحاضرين خاصة الأمراء، الذين تمنّوا للشاب شراً ينقذهم من وصية الملك. وسأل الملك مفتش أهرامه:

- ماذا تعنى أيها المفتش؟

فقال بشارو وعيناه إلى أرض الحجرة:

- مولاى . . ددْفْ هذا ابن كاهن رَعْ السابق . . منرَعْ.

فنظر إليه فرَعْون نظرة غريبة، وتمتم فى ذهول وروحه تسبح فى ظلمات الماضى البعيد:

- رَعْ! . . منرَعْ . . كاهن رَعْ . . !

وكان المعمارى مِرْتِيبْ أكثر تذكّرا لذاك اليوم، فقال بغرابة:

- ابن منرَعْ؟ هذا بعيد عن التصديق يا مولاى. لقد مات منرَعْ وقُتِل طفله فى ساعة واحدة.

فتذكّر فرَعْون، وارتجف قلبه المتهالك، وقال:

- نعم لقد ذُبح ابن منرَعْ على فراش ولادته. فما هذا الذى تقوله أيها الرجل؟

فقال بشارو:

- مولاى، لا علم لى بالطفل الذى ذُبح. وكل ما أعلمه أتانى بالمصادفة، أو لحكمة يعلمها الرب، فكان امتحانا لقلبى الذى يتعلّق بهذا الشاب أيما تعلق.

ثم روى بشارو على مولاه، وعيناه تذرفان بالدموع، قصته مع زايا وطفلها الرضيع، من مبتداها إلى الساعة الرهيبة، التى وقف يسترق فيها السمع إلى قصة رِدَه دِيدِيتْ الغريبة.

واستولت الدهشة على الحاضرين، ولمعت أعين الأمراء ببريق أمل خاطف. أما الأميرة مرى سى عنخ، فقد اتسعت عيناها هلعا ورَعْبا، وركّزت بصرها على وجه أبيها.

والتفت الملك، بوجهه الشاحب، إلى دِدْفْ وسأله:

ـ أصحيح.. ما يقوله هذا الرجل، أيها القائد؟

رد دِدْفْ بشجاعته المعهودة:

ـ نعم.. يا مولاى.

فنظر فرَعْون إلى خعمين، ثم إلى أُرْبوُ، ثم إلى مِرْئِيبْ، يستغيث بهم من هول هذه العجائب، ثم قال:

ـ يالعجائب الأقدار!

وألقى الأمير رَعْباوف على دِدْفْ نظرة نارية، وقال وهو يتشفّى:

ـ الآن ظهر الحق!

ولكن فرَعْون لم ينتبه إلى قوله، واستطرد يقول بصوت حالم خافت:

ـ حدث منذ أكثر من عشرين عاما، أن أعلنت حربًا شعواء،

تحدّيت بها الآلهة . . فجرّدت جيشا سرْت على رأسه بنفسى لقتال طفل رضيع . . وظنَنْت أنى نفذت إرادتى وأعليت كلمتى . . وإذا بالحقيقة اليوم تهزأ بظنى وباطمئنانى . . وإذا بالرب يصفع كبريائى . . وها أنتم أؤلاء، ترون كيف أنى أجزى طفل رَعْ على قتله ولىّ عهدى، وأختاره خلفًا لى على عرش مصر . . فيالعجائب الأقدار!

وأحنى فرَعْون رأسه، حتى استند ذقنه على أعلى صدره، وراح فى تأمّل عميق .

وانتظر الأمراء على جزع، ونظرت الأميرة مرى سى غنخ إلى والدها بعينين يطل منهما ملاك، يتضرّع ويتوسّل . وترددت الأعين بين رأس الملك المنكس، وبين الشاب دِدْفْ الذى وقف فى ثبات عظيم مستسلما للأقدار .

ونظر الملك إلى وزيره خعمين وقال :

- إلىّ أيها الوزير بأوراق البردى، لأكتب حكمتى الأخيرة، عن أبلغ عظة تعلمتها من عجائب الأقدار . أسرَعْ فما بقى من العمر إلا لحظات . .

وأحضر الوزير ملفات البردى، فوضعها فرَعْون على حجره، وأمسك بالقلم، ومضى يكتب حكمته الأخيرة . وكانت مرى سى عنخ جاثية إلى جانب فراشه وإلى جانبها الملكة الحزينة . وكُتِمَت الأنفاس، فما كان يُسْمَع إلا صريرُ القلم . وانتهى فرَعْون، فَرمى القلم فى إعياء شديد .

ولكنه، قبل أن يستسلم إلى الراحة، نظر إلى ددْفْ، وأشار إليه. فاقترب الشاب من فراش الملك ووقف كالتمَثال. فأخذ فرَعْون يده ووضعها على يد مرى سى عنخ، ووضع يده النحيلة على يديهما، ونظر إلى القوم وقال:

- أيها الأمراء والوزراء والأصدقاء.. حيّوا جميعا مَلِكَيْ الغد.

فلم يتردد أحد. واتجهوا جميعا بأنظارهم إلى مرى سى عنخ وددِفْ، وأحنوا الهامات.

ونظر فرَعْون إلى سماء الحجرة لا يحرك ساكنا، واكتسى وجهه بنور سماوى، وصعدت روحه إلى السماء.

صفحة فارغة

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨١٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)